قلوب المعرضين عن القرآن في القرآن

«دلالات و حكم وأسرار»

obeikandl.com

obeikandl.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، صاحب الرَّحمات والبركات، المُنْعِم علىٰ خلقه بالعفو عن الذُّنوب والسَّيئات، منح قلوب المقبلين عليه نعمة التفكُّر والتدبُّر في قرآنه الكريم فهداهم إلىٰ صراطه المستقيم، ومنع منها قلوب المعرضين عنه فهداهم إلىٰ صراط الجحيم، والصَّلاة والسَّلام علىٰ صاحب العقل الرَّاجح والرأي الصَّائب والفكر الثَّاقب والقلب الحَيِّ محمد بن عبد الله ﷺ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن اختلف الزَّمان والمكان واختلفت الوجوه والأقلام وتعدَّدت أصناف القلوب ومراميها فما يزال وجه الشَّبه قائمًا بين تلك الأجيال التي سجدت وسبَّحت بكل أعضائها لأصنام الهوىٰ وأتباع الغيِّ والضَّلال، فالليل ليل وإن بالغ الشُّعراء والكُتَّاب في وصف محاسنه وشمائله، وأُذُن الكبر وإن سمعت فهي لا تدرك غثَّ الكلام من فضائله، وعيون الجهل وإن نظرت فهي لا تبصر زور الكلام من حقائقه، ولسان الهوىٰ وإن نطق فهو أسير من أسارىٰ الكِبْر وباطله، وعقول الخارجين عن رحمة الله ﷻ -إن كانت عقولاً- فهي من السَّابحين في بحور الكلام الفاسد وغوائله، والمعرضون عن القرآن وإن اختلفت أسماؤهم وتعدَّدت أفكارهم فقلوبهم لا تسمع ولا ترىٰ ولا تنطق إلا بالباطل بشتىٰ مفاسده ومقاصده.

وقد خلق الله ﷻ قلوب بني البشر من أجل التفكُّر والتَّدبُّر والنَّظر في آياته ومنها القرآن الكريم، وأوجد فيها جميع مراتب الاستعداد والحِسِّ والتأمُّل، وأودع فيها من الخير ألوانًا وأشكالاً وأصنافًا شتىٰ، ولكن بعضها أبىٰ واستحوذ عليه الكِبْر والعُجْب وسيطرت عليه الشَّهوات والشُّبهات فأغلق باب الفقه والعلم والمعرفة فدفع

هذا الأمر دفعًا وردَّه ردًّا وحمل بيده معوله وكسر تمثال الفضيلة وأهان طبيعته البشريَّة فأصيب بداء الإعراض الذي لم يُجْد معه دواء ولا يرجىٰ له شفاء.

وقد استخدم القرآن الكريم عدَّة ألفاظ مختلفة للتَّعبير عن قلوب المعرضين عنه في عدَّة سياقات مختلفة تبدو درجة التَّشابه والتَّقارب بينها قويَّة للغاية في الدَّلالة وإن اختلفت الحروف والحركات، وهذا واقع لا يمكن إنكاره، وهذا ما جعل بعض المفسِّرين يفسِّرون اللفظ بالآخر دون أدنىٰ تفريق بينهما علىٰ أنَّ هذا الأمر من قبيل التَّرادف التَّام أو الكامل، وينصُّون علىٰ ذلك صراحة مثل تفسير الرَّان بالطَّبع والختم، والطَّبع بالختم والعكس كذلك، والإقفال بمعنىٰ الرَّين أو الختم أو القاسية أو الطَّبع وغير ذلك، والحقيقة أنَّه قد يكون المخاطب واحدًا في هذه السِّياقات المختلفة ولكن اختلاف المقام في كل صورة من حيث التَّوصيف الخاصِّ به والمغزىٰ والهدف يجعل لكل لفظة عالمها الخاص الذي تنفرد به، وبيتها الذي تأوي إليه، والذي لا يمكن أن تؤدَّىٰ الصورة كاملة بدونه، فالتَّقارب الدَّلالي جائز ولكن أن يتم التَّناوب بين اللفظين في سياق واحد لدلالة واحدة من جميع الوجوه فهذا خارج حدود المألوف والمعروف.

وهذه الصِّفات الخبيثة التي اتَّصفت بها هذه القلوب كلها صفات معنويَّة استعملها القرآن الكريم علىٰ سبيل المجاز لتجسيد صورة وحقيقة وجرم هؤلاء الذين ذهبت بهم الدُّنيا كل مذهب ففقدوا عالم الفضيلة بكل مثله وأخلاقه الرفيعة وانغمسوا في بحار الأخلاق الفاسدة فغابوا عن الوجود وإن كانت قلوبهم تنبض بالحياة خلافًا للإمام القرطبي الذي يرىٰ أنَّ هذه الصِّفات لا وجه فيها للتَّأويل علىٰ سبيل المجاز بل تستخدم في دائرتها الحقيقيَّة التي وضعت لها فيذكر بعض الأقوال ويعلِّق عليها عند شرحه للفظة (ختم) في سورة البقرة «قال مجاهد: القلب كالكَفِّ يقبض منه بكل ذنب إصبع، ثم يطبع. قلت: وفي قول مجاهد هذا، وقوله ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد**

الجسد كله ألا وهي القلب»[1] دليل على أن الختم يكون حقيقيًا، والله أعلم»[2].

وهذا البحث عنوانه (قلوب المعرضين عن القرآن في القرآن دلالات وحكم وأسرار) يعرض لهذه الفكرة ويؤكِّد عليها في تسعة أشكال، وذلك بحسب الترتيب الألفبائي المعروف بعد تمهيد عنوانه (قلوب المعرضين في الميزان) وفي الختام أهم النتائج.

وبهذه الصُّورة المنهجية وطبقًا للمنهج الإحصائي التحليليِّ تمَّ تصنيف وتوصيف هذا البحث.

الشكل الأول: ران القلوب.

الشكل الثاني: زيغ القلوب.

الشكل الثالث: صرف القلوب.

الشكل الرابع: طبع القلوب.

الشكل الخامس: غمرة القلوب.

الشكل السادس: قسوة القلوب.

الشكل السابع: أقفال القلوب.

الشكل الثامن: أكِنَّة القلوب.

الشكل التاسع: مرض القلوب.

فلكلمات القرآن الكريم دلالات وحكم وأسرار تراها عندما تحتضن العبارة في انسياب بديع وترتيب محكم تشعر معه بالتآلف والتَّراحم والتَّقارب فكأنَّك ما

(1) الحديث عن النعمان بن بشير. الجامع الصحيح المختصر. محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق د. مصطفى ديب البغا 1/ 28 - باب فضل من استبرأ لدينه - كتاب الإيمان - دار ابن كثير - اليمامة - بيروت - الطبعة الثالثة 1407هـ-1987م.

(2) الجامع لأحكام القرآن. محمد بن أحمد القرطبي. تحقيق. هشام سمير البخاري 1/ 188 - دار عالم الكتب - الرياض - المملكة العربية السعودية 1423هـ-2003م.

openkanal.com

قرأت كلامًا قبله ولن تقرأ كلامًا بعده، فلا حدود لإعجازه ولا مجال لإدراك جميع أسراره.

وبعد، فإنَّ صلاح هذه الأمَّة يعتمد علىٰ صلاح قلوبها، وإن تقدُّمها وعلو شأنها ورفعة مكانتها وريادتها وإمامتها وصدارتها مبدؤه فهم آيات الله البيِّنات وتطبيق ذلك واقعًا حيًّا، وأما ما أصيبت به بعض القلوب من العلل والأسقام والأمراض والإعراض فغايته الهدم لا البناء والخراب لا الإعمار، فنقطة البداية عند هؤلاء مجهولة المصدر والهويَّة وفاقد الشيء لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه.

وفي الختام فهذه محاولة أقدِّمها علىٰ مائدة البحث العلمي، قد تجد لها مكانًا في الدَّراسات القرآنيَّة اللغويَّة وقد لا تجد، ولكنَّه اجتهاد قد أصيب فيه وأخطئ، فأسأله ﷻ الهداية والتَّوفيق والرَّشاد فيما عرضت له، والعصمة من الزَّلل فيما اجتهدت فيه.

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

obeikandl.com

تمهيد

قلوب المعرضين في الميزان

قد يحيا الإنسان ويموت من أجل تحقيق هدف ما يؤمن به ويسعىٰ إلىٰ تحقيقه، فقد تدركه الآمال وقد لا تدركه، سواء أكان هذا الهدف نبيلاً أم حقيرًا، المهم أنَّ من خواص تركيبه وطبيعة تكوينه الاستعداد للمعرفة عن طريق التَّجربة والتي تحمل كثيرًا من الهموم والآلام قد يصل من خلالها إلىٰ مقصده ومبتغاه، وقد تحول الحياة بينه وبين تحقيق آماله وأحلامه، والجوارح في هذا السَّبيل تسعىٰ وتجتهد بالصَّمت حينًا وبالكلام أحيانًا ولكنها في النِّهاية تأتمر وتنتهي وتسمع وتطيع، لا تمتلك القدرة علىٰ النِّقاش ولغة الحوار وإنما تولِّي وجهتها حيث يولي القلب قبلته، إن أحسن أحسنت، وإن أساء أساءت، لا تملك الدَّفع أو الرَّد أو القبول أو الرَّفض وإنَّما غايتها التَّسليم والإذعان، فالقلب هو المخاطب والمسئول أمام خالقه ﷻ: «فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرِّب إلىٰ الله، وهو العامل لله، وهو السَّاعي إلىٰ الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنَّما الجوارح أتباع له وخدم وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الرَّاعي للرعية والصَّانع للآلة، فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقًا بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقىٰ إذا دنَّسه ودسَّاه، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالىٰ، وإنَّما الذي ينتشر علىٰ الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرِّد علىٰ الله تعالىٰ وإنما السَّاري إلىٰ الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذ كل إناء ينضح بما فيه، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربَّه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه وإذا جهل نفسه

فقد جهل ربَّه، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإنَّ الله يحول بين المرء وقلبه ...»[1].

وقد استولت الجهالة بجماعة من بني البشر داخلها الهوىٰ والغرور والكِبْر والعجب فانساقت وراء أماني الشيطان الخادعة وسلطانه المزيف، وجبروته المصطنع فوجدت نفسها لغير الله راكعة ساجدة، وعن أوامره معرضة، فلم يكن القلب لها دليل الصَّواب ولا عنوان الرَّشاد، فلم تبصر الأمور علىٰ حقيقتها ولم تزن الحياة بميزان العقل والفكر وإنما لهثت وراء سراب خادع حتىٰ سكنت دار الخلود وعندها أيقنت خزي التَّفكير وسوء التَّدبير، وإذا بحثت عن تلك الأسرار التي علقت بهذه القلوب وجعلتها تركن إلىٰ هذا المصير فاعلم بأنَّه قد سيطر عليها كثير من الأمراض هي كما ذكرها أبو حيان بقوله: «وقد تلخص في القرآن من المعاني السببيَّة التي تحصل في القلب سبعة وعشرون مرضًا، وهي: الرَّين، والزَّيغ، والطَّبع، والصَّرف، والضِّيق، والحرج، والختم، والإقفال، والإشراب، والرُّعب، والقساوة، والإصرار، وعدم التَّطهير، والنُّفور، والاشمئزاز، والإنكار، والشكوك، والعمىٰ، والإبعاد بصيغة اللعن، والتأبِّي، والحمية، والبغضاء، والغفلة، والغمرة، واللهو، والارتياب، والنِّفاق. وظاهر آيات القرآن تدل علىٰ أن هذه الأمراض معان تحصل في القلب فتغلب عليه، وللقلب أمراض غير هذه من الغلِّ والحقد والحسد، ذكرها الله تعالىٰ مضافة إلىٰ جملة الكُفَّار»[2].

وأما قلوب المُعْرِضين عن القرآن في القرآن فكان لها من هذه الصِّفات حظٌّ ونصيب فاقتبست واستعارت منها سبعًا علىٰ سبيل المنحة التي لا ترد، إضافة إلىٰ الأكِنَّة باعتبارها أيضًا من أمراض القلوب، وكذلك المرض بصورته التي عليها

(1) إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي. تحقيق. سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران3/ 3، 4 - دار الحديث - القاهرة 1419هـ-1998م.

(2) البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. تحقيق. عادل أحمد عبد الموجود وآخرين 1/ 188 - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1422هـ-2001م.

فيكون المجموع تسعة أشكال عبَّرت من خلالها عن عللها وأسقامها، وعنفها وقسوتها، وأنَّها بكل صراحة ووضوح واجهت المنحة التي وهبها الله ﷻ لها والتي تحيا تحت ظلالها آمنة مطمئنة بكل تعال وغرور فأوقعت نفسها في محنة، تُتْلىٰ علىٰ مسامعها آيات القرآن الكريم ليل نهار فتولِّي مدبرة قاصدة، لا تبالي إن كانت آثمة أو ظالمة، فلم تعط لنفسها فرصة الاستماع حتىٰ تتفكَّر وتتدبَّر وإن استمعت وأيقنت بفصاحة وحسن وبديع هذا البيان والذي لا يمكن أن يكون نظمه عن طريق بشر بأي حال من الأحوال أصابتها عجمة الفهم وعدم إدراك فحوىٰ هذا الكلام، فاختلت عندها الموازين، واضطربت أمام عينها الحقائق والمفاهيم، فلم تعد تميِّز بين غثٍّ وسمين وصحيح وسقيم فاستحقت وبكلِّ جدارة وسام المُعْرِضين.

obeikandl.com

الشكل الأول: ران القلوب

الحقُّ دائمًا وأبدًا يريد لك الهداية والباطل يريد أن يقذف بك في عالم الضَّلالة وليس بينهما حياد، فإمَّا أن تفتح قلبك وتكون صاحب وعي وإدراك فتختار التَّصديق بيوم الدين والإيمان بالقرآن الكريم المنزَّل من ربِّ العالمين فتبتسم لك الحياة وتصفق لك بكلتا يديها فتحيا وإن كنت في دار اليقين، وإمَّا أن تغلِّفه بالباطل فترىٰ الجهل علمًا والظلمة نورًا فتحجب عنك الجاهليَّة نور الإيمان وتغلق أمام عينيك جميع أبواب الفهم والإدراك فلم يبق في حياتك شعاع أمل من خير أو عنوان رجاء من إنابة فتجد الرُّوح التي تهب الإنسان الحياة قد تحوَّلت إلىٰ جثَّة هامدة وإن كان صاحبها في عداد الحياة.

فهذا صاحب قلم -إن صَحَّ التَّعبير مجازًا بذلك- قد أطلق لفكره العنان فسَطَّر الكلمات والعبارات التي لم يستح الجهر بها فأعلن أمام الملأ بأنَّ القرآن الكريم عبارة عن حكايات وأحاديث الأولين لما فيه من القصص وأخبار المتقدِّمين ناسيًا أو متناسيًا ما فيها من جانب التفكُّر والتدبُّر والموعظة، متجاهلاً حقيقة إعجازه وصلاحيته لعلاج ما ران علىٰ القلوب من الذُّنوب والآثام، وطرحه للأفكار التي ينصلح بها حال البشريَّة جمعاء في كل زمان ومكان، وذلك «لفرط جهله وإعراضه عن الحقِّ فلا تنفعه شواهد النَّقل كما لا تنفعه دلائل العقل، وهذا عام في كل موصوف بذلك»[1].

قال تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 13، 14].

---

(1) تفسير السراج المنير. محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين 4/ 366 - دار الكتب العلمية - بيروت.
وينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. إبراهيم بن عمر البقاعي. تحقيق. عبد الرازق غالب المهدي 8/ 359 - دار الكتب العلمية - بيروت 1415هـ-1995م.
وقال الكلبي: هو الوليد بن المغيرة. وقيل: هو النَّضْر بن الحارث. تفسير السراج المنير 4/ 366. ولا تعنينا الأسماء بقدر ما يعنينا المغزىٰ والهدف.

تأمَّل جمال تعبير القرآن الكريم عن أصحاب هذه القلوب السَّوداويَّة التي غطَّىٰ الظلام جميع أركانها ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

فـ (ران القلوب) وإن اختلف حول بيان دلالته المصطلحات والآراء والتعبيرات وتعدَّدت فيه التَّأويلات إلا أنَّ المشهور منها والمعنىٰ الجامع لها هو الغلبة والإحاطة والتَّغطية، حيث قيل في تفسيره: «﴿رَانَ﴾ أي: غلب وأحاط وغطىٰ تغطية الغيم للسماء ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ أي: كل من قال هذا القول ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: كما يركب الصَّدأ من إصرارهم علىٰ الكبائر وتسويف التَّوبة حتىٰ طبع علىٰ قلوبهم فلا تقبل الخير ولا تميل إليه»[1].

«وأصل الرَّان الغلبة: ومعنىٰ الآية أن الذُّنوب والمعاصي غلبت علىٰ قلوبهم وأحاطت بها»[2].

«فقد غَطَّت علىٰ قلوبهم أعمالهم أن يدخلها فهم القرآن والبون شاسع بينه وبين أساطير الأولين»[3].

وشواهد الاحتجاج علىٰ هذه الدَّلالة كثيرة منها:

1- أقوال أهل اللغة:

ذكر ابن منظور: «ران الذَّنب علىٰ قلبه يرين رَيْنًا ورُيُونًا: غلب عليه وغَطَّاه. وفي التنزيل العزيز: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي غلب وطبع وختم ... ورِين علىٰ قلبه: غُطِّيَ. وكل ما غَطَّىٰ شيئًا فقد ران عليه. ورانت عليه الخمر:

(1) تفسير السراج المنير4/ 366.

(2) لباب التأويل في معاني التنزيل. علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن 7/ 220 - دار الفكر - بيروت - لبنان - 1399هـ-1979م.

وينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن. محمد بن جرير الطبري. حققه. أحمد محمد شاكر 24/ 285 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م، ومعالم التنزيل. الحسن بن محمد البغوي. حقَّقه. محمد عبد الله النمر وآخرون 8/ 365 - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الرابعة 1417هـ-1997م.

(3) التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور 30/ 199 - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس 1997م.

غلبته وغشيته، وكذلك النُّعاس والهَمُّ، وهو مَثَلٌ بذلك، وقيل: كل غَلَبَة رَيْنٌ ... قال أبو عبيد: كل ما غَلَبَك وعلاك فقد ران بك ورانَك وران عليك»[1].

وذكر الرَّاغب أن: «الرَّين: صدأ يعلو الشَّيء الجليل. قال تعالىٰ: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ -أي صار ذلك كصدأ علىٰ جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشَّرِّ»[2].

2- أقوال عامَّة المفسرين:

عن دلالة (الرَّان) «قال المفسرون: هو الذَّنب علىٰ الذَّنب حتىٰ يسودَّ القلب، قال مجاهد: هو الرَّجل يُذنب، فيحيط الذَّنب بقلبه، ثم يذنب الذَّنب فيحيط الذَّنب بقلبه، حتىٰ تُغَشَّىٰ الذُّنوب قلبه، ... وكثرت المعاصي منهم والذُّنوب فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرَّين عليها، ورُوي عن مجاهد أيضًا قال: القلب مثل الكهف ورفع كفه، فإذا أذنب العبد الذنب انقبض، وضم إصبعه، فإذا أذنب الذَّنب انقبض، وضم أخرىٰ، حتىٰ ضمَّ أصابعه كلها، حتىٰ يُطبع علىٰ قلبه، قال، وكانوا يرون أن ذلك هو الرَّيْنُ، ثم قرأ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. ومثله عن حذيفة رضي الله عنه[3] سواء، وقال بكر بن عبد الله: إنَّ العبد إذا أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة، ثم صار إذا أذنب ثانيًا صار كذلك، ثم إذا كثرت الذُّنوب صار القلب كالمُنْخُل، أو كالغِربال، لا يعي خيرًا، ولا يثبت فيه صلاح»[4].

3- الأحاديث النبوية:

- عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ**

(1) لسان العرب. ابن منظور الإفريقي. حققه. عبد الله علي الكبير وآخرون (ر. ي. ن) 3/ 1796، 1797 - دار المعارف.

(2) المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني. تحقيق. محمد سيد كيلاني ص208 - دار المعرفة - لبنان.

(3) هو حذيفة بن اليمان. الكشف والبيان. أحمد بن محمد الثعلبي. حققه. أبو محمد بن عاشور 10/ 153 - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1422هـ-2002م.

(4) الجامع لأحكام القرآن 19/ 259، 260.

في قلبه نُكْتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب، صقُل قلبه، وإن عاد زيد فيها، حتىٰ تعلُو قلبه، وهو الرَّان، الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

- عن عمر بن عبد الرحمن بن دلاف عن أبيه أن رجلاً من جهينة كان يشتري الرَّواحل فيغالي بها ثم يسرع السَّير فيسبق الحاجَّ فأفلس فرفع أمره إلىٰ عمر بن الحطاب رضي الله عنه فقال: أما بعد، أيها الناس فإنَّ الأسيفع أسيفع جهينة رَضِيَ من دينه وأمانته أن يقال سبق الحاج إلا أنه قد ادَّان معرضًا فأصبح قد رِين به فمن كان له دين فليأتنا بالغداة نقسِّم ماله بين غرمائه[2].

قوله: ادَّان معرضًا أي: استدان معرضًا عن الأداء. وقوله: قد رِينَ به أي: أحاط بماله الدَّيْن، يقال: رِينَ بالرجل رينًا: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه[3].

4- الشِّعر العربي:

«قول أبي زُبَيْد الطَّائي يصف رجلاً شرب حتىٰ غلبه الشَّراب سُكْرًا، فقال:

ثم لما رآه رانتْ به الخَمْرُ وأن لا ترينه باتِّقاء

(1) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير. الجامع الصحيح سنن الترمذي. محمد بن عيسىٰ الترمذي. تحقيق. أحمد محمد شاكر وآخرين 5/ 434 - رقم الحديث 3334 - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(2) سنن البيهقي الكبرىٰ. أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي. تحقيق. محمد عبد القادر عطا 1/ 141 - باب من أجاز القضاء علىٰ الغائب - رقم الحديث 20277 - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - 1414هـ-1994م. والحديث في البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير. ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي. تحقيق. مصطفىٰ أبو الغيط وآخرين6/ 660 - دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض السعودية - الطبعة الأولىٰ 1425هـ-2004م.

(3) شرح السنة للإمام البغوي. تحقيق. شعيب الأرناؤوط، محمد زهير الشاويش 8/ 190 - باب قسمة المفلس بين الغرماء - رقم الحديث 2135 - المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت - 1403هـ-1983م.

obeikandi.com

فقوله: رانت به الخمر، أي غلبت علىٰ عقله وقلبه»[1].

وفي ضوء هذه الشَّواهد والأقوال ترىٰ هذا النِّتاج الضَّخم والتَّزاحم والتَّراكم العظيم الذي أنتجته الذُّنوب والمعاصي في القلوب حتىٰ جعلت عليها غطاء كثيفًا وحجابًا مانعًا حجب عنها نور الحق كليَّة، وكيف يكون للحق صوت مع هؤلاء الكُفَّار الذين وسموا القرآن بأنَّه أساطير الأولين.

ولذلك جاءت اللفظة وحيدة الاستعمال فريدة في بابها أتىٰ بها السياق القرآني من أجل تجسيد هذا المشهد المرير، فـ«القلب الذي يمرد علىٰ المعصية ينطمس ويظلم، ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النور ويفقده الحساسية شيئًا فشيئًا حتىٰ يتبلَّد ويموت»[2].

فإن تعجب فعجب لهؤلاء الذين يشرون الذُّنوب ويدَّخرونها كما يدخر المال حتىٰ تغطي علىٰ نور الحقِّ الذي فطر الله القلوب عليه.

والفصل في هذه المسالة واضح لكل ذي لبٍّ، شاهد صدق ويقين علىٰ أنَّه: «ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، إنَّ هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله علىٰ رسوله ﷺ وإنَّما حجب عن قلوبهم الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس علىٰ قلوبهم من كثرة الذُّنوب والخطايا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. والرين يعتري قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين»[3].

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 19/ 260. والبيت في: مجاز القرآن. أبو عبيدة معمر بن المُثَنَّىٰ. علق عليه د. محمد فؤاد سزكين 2/ 289 - مكتبة الخانجي بالقاهرة، وجامع البيان 24/ 285، ولسان العرب 3/ 1797.

(2) في ظلال القرآن. سيد قطب 6/ 3857، 3858 - الطبعة الشرعية السادسة عشرة 1410هـ-1990م.

(3) تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. حققه. سامي بن محمد سلامة 8/ 350 - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية 1420هـ-1999م.

ولذلك ظلَّ هذا القلب طوال حياته في غياهب الجب لا يبصر الحقَّ ولا يوقن به، وكيف يوقن به، وهو: «﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الدَّالة علىٰ الحقِّ وعلىٰ صدق ما جاءت به رسله، كذبها وعاندها و﴿قَالَ﴾ هذا ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين ليس من عند الله، تكبرًا وعنادًا، وأما من أنصف، وكان مقصوده الحق المبين، فإنَّه لا يكذِّب بيوم الدين؛ لأنَّ الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين السَّاطعة ما يجعله حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل الشَّمس للإبصار، بخلاف من ران علىٰ قلبه وكسبه، وغطته معاصيه فإنَّه محجوب عن الحق. ولهذا جوزي علىٰ ذلك بأن حُجب عن الله، كما حُجب قلبه في الدُّنيا عن آيات الله»[1].

ومن هنا فوسم القرآن بأنَّه أساطير الأولين ناسبه ران القلوب بأن ظهرت عليها عدَّة أغطية حجبت عنها نور الحقِّ وطمست علىٰ بصيرتها فلم تعد تميز بين صحيح الكلام وفاسده، فالجزاء من جنس العمل، والآية عامَّة في كل من انحرف عن جادة الطَّريق المستقيم ووسم القرآن الكريم بأنَّه أساطير الأولين.

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. المحقق. عبد الرحمن بن معلا اللويحق ص915 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

obeikandl.com

الشكل الثاني: زيغ القلوب

لا نختلف فيما بيننا في أن الإنسان ينظر في المرآة ليرىٰ صورة نفسه وحقيقة مظهره ولكن أن يرىٰ شيطانًا يصور له المساوئ محاسنًا والقبح جمالاً فتلك هي مشكلة أصحاب الشُّبهات والشَّهوات في طرح الأفكار المغلوطة والسِّهام المسمومة، وذلك من خلال المتشابه من آيات القرآن الكريم والتي تحتمل التَّأويل وتعدُّد دلالات التَّوجيه دون تعارض أو تناقض في إصدار الأحكام، غير مدركين أنَّ ذلك في حد ذاته إعجاز يدعو الفكر إلىٰ التَّفقه والتَّدبُّر في هذا العالم الدقيق ومحاولة كشف بعض أسراره وإن عجز فيمكنه رده إلىٰ المحكم منه والذي لا تجد في آياته لبس أو غموض أو تأويل أو إشكال وذلك إن كان في القلب ذرَّة من إيمان.

وقد اقتضت حكمة الله ﷻ أن تكون أكثر آيات القرآن الكريم محكمات بيِّنات لا لبس فيها ولا غموض ولا قياس ولا تأويل ولا إشكال ترىٰ فيها وضوح الدلالة وضوح الشمس في كبد السماء، تكاد كل آية أن تنطق بذلك وتأخذ بأيدي المؤمنين بها إلىٰ طريق الحقِّ والرَّشاد، ويوقن بها كذلك أصحاب الهوىٰ ولكنَّهم لم يجدوا فيها سبيلاً إلىٰ الطعن ورفع سهامهم المسمومة إليها، ولكن المتشابه من الآيات يحتمل سبيلاً إلىٰ التَّأويل وتعدُّد ألوان التَّفسير وتوجيه الدَّلالة إلىٰ أكثر من اتِّجاه، وهذا ما يتخذه أصحاب الشُّبهات بل والشَّهوات سبيلاً للطعن في كثير من الثَّوابت والأصول، فترىٰ القيل والقال وطرح السؤال وعدم انتظار الجواب فتنزلق أقدامهم في أعماق الأرض وتتساقط حبَّات الرِّمال المتحركة فوق رءوسهم، فتنحرف العقول وتضلُّ القلوب عن سواء السَّبيل.

وهذا هو زيغ قلوب المعرضين عن القرآن تجده في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ﴾ [آل عمران: 7].

فهذا الزَّيغ يمثل أعلىٰ دائرة الانحراف والميل عن اتباع الحقِّ إمَّا بدلالة العموم أو الخصوص، فدلالة العموم وهو ما أراه أقرب إلىٰ القبول تنصرف إلىٰ «الذين في قلوبهم ميل عن الحق، وانحراف عنه. يقال منه: زاغ فلان عن الحقِّ، فهو يَزيغ عنه زيْغًا وزَيغانًا وزيغُوغة وزُيوغًا، و«أزاغه الله» -إذا أماله- فهو يُزيغه»، ومنه قوله جلَّ ثناؤه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: 8] لا تملها عن الحق ...»[1].

وأما دلالة الخصوص فهي تشير إلىٰ تفسير الزَّيغ بمعنىٰ اللَّبس أو الشِّرك أو الشُّبهات التي تتَّعلق بالقلب[2] أو الشَّك[3].

وعلىٰ ذلك فما دام الباطل عنوانًا، وإتباعه دستورًا فالمتشابه من الآيات هو المدخل لأصحاب هذه القلوب الضَّعيفة التي لا تفترض تلك الأفكار حتىٰ تستطيع أن تجالسها وتخاطبها خطاب العقل والحكمة فتعود إلىٰ صوابها ولكنَّها أرضعت الباطل بشتىٰ صوره منذ نعومة أظفارها، ففساد المقصد دليل سوء النية حتىٰ كانت النَّتيجة الزَّيغ واتِّباع الهوىٰ، والمقصد هو أنهم يتَّبعون «ما تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التَّأويلات، ليحققُّوا بادِّعائهم الأباطيل من التَّأويلات في ذلك ما هم عليه من الضَّلالة والزَّيغ عن محجَّة الحقِّ، تلبيسًا منهم بذلك علىٰ من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معانيه»[4].

أو بمعنىٰ آخر: «﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضَّلال، وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدي والرَّشاد ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلىٰ المتشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم علىٰ المتشابه ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ لمن

(1) جامع البيان 6 / 183. وينظر: لسان العرب (ز. ي. غ) 3/ 1900.

(2) تفسير القرآن. منصور بن محمد السمعاني. تحقيق. ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم 1/ 295 - دار الوطن - الرياض - السعودية - 1418هـ-1997م.

(3) الكشف والبيان 2/ 12.

(4) جامع البيان 6/ 183. وينظر: تفسير القرآن العظيم 2/ 8.

يدعونهم لقولهم، فإنَّ المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصَّريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحقِّ فيه لمن قصده اتِّباعه»[1].

ولو أنَّ القلوب قد دعت إلىٰ الصِّدق والهدىٰ وأخلصت في ادِّعائها الحق لما هوت وانزلقت إلىٰ الهاوية، فالمسألة في غاية السهولة «فمَنْ ردَّ ما اشتبه عليه إلىٰ الواضح منه، وحَكَّم محكمه علىٰ متشابهه عنده، فقد اهتدىٰ، ومن عكس انعكس»[2].

وعلىٰ ذلك فالزَّيغ واضح الدَّلالة يسلك مسلكه وينهج منهجه هؤلاء «... الذين في قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة، فيتركون الأصول الواضحة الدَّقيقة التي تقوم عليها العقيدة والشَّريعة والمنهاج العلمي للحياة، ويجرون وراء المتشابه الذي يقوم في تصديقه علىٰ الإيمان بصدق مصدره، والتَّسليم بأنَّه هو الذي يعلم الحقَّ كله، بينما الإدراك البشري نسبي محدود المجال. كما يعول فيه علىٰ استقامة الفطرة التي تدرك بالإلهام المباشر صدق هذا الكتاب كله، وأنَّه نزل بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. يجرون وراء المتشابه لأنَّهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بالتَّأويلات المزلزلة للعقيدة، والاختلافات التي تنشأ عن بلبلة الفكر، نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر في تأويله»[3].

لذلك فكل مَنْ احتج علىٰ باطله بمتشابه القرآن ولم يتخذ الحقَّ مقصدًا وهدفًا ومال عنه فقد انحرف عن جادة الطريق المستقيم والنَّهج القويم، فقد تَدَّعي هذه القلوب الصِّدق والإخلاص والتَّفكُّر والتَّدبُّر والتَّبحُّر في هذا العالم الخاص الفياض بالدَّلالات بغية الوصول إلىٰ الحائق ولكن هذه فرية لا أساس لها، فناسب المقام هنا زيغ القلوب والذي يعني الانحراف والميل عن الصَّواب عامة والتَّمسك بكل ما هو مخالف للحقِّ والرَّشاد.

(1) تيسير الكريم الرحمن ص122.
(2) تفسير القرآن العظيم 2/ 6.
(3) في ظلال القرآن 1/ 369، 370.

الشكل الثالث: صرف القلوب

عندما تُنْظم قصائد المدح في شخصك ويشير البنان إلىٰ قَدْرك ويرفع الإعلام من ذكرك وتتحدَّث عنك الدُّنيا بلغة العظمة والفخر تنصت وتعقل وتفهم، فأقدار البشر مصونة، وعلامات الاستفهام غير مطروحة، فطوبىٰ لزمان أهدي فيه الحقُّ لأهله، ولكن عندما تسمع آيات العتاب أو التَّوجيه للصَّواب أو فضح سرائر القلوب تنصرف الآذان عن السَّماع، والقلوب عن الفهم والإدراك، وتحدِّثك نفسك بأنَّ هذا من باب الكيد لك والمكر بك، وهذا هو حال المنافقين الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، حيث صرَّحوا بصحة الاعتقاد، وغدوا بين الناس بيض الثياب، والعفَّة والفضيلة تتجسَّد في حركاتهم وسكناتهم كأنَّهم ملائكة العدل والرَّحمة، ولكنَّ الحقيقة هي أنَّ هذه القلوب عن ذكر الله مصروفة، ومعايبهم ومساوئهم أمام الله مكشوفة، تتنزَّل آيات من القرآن لتكشف حالهم وتنبئهم بما في قلوبهم فينقلبوا معرضين وعن المؤمنين منصرفين.

فتأمَّل هذا الموقف وهم جلوس في مجلس النبي ﷺ والمؤمنون من حوله، والسُّورة تنزل من القرآن ليميز الله بها الخبيث من الطَّيب فترىٰ حالة من حالات اختلاس النَّظر، يتهامس المنافقون فيها بلغة العين ظنًّا منهم أنَّ هذه اللغة خاصَّة بهم ولا يدرك أهل الإيمان حالهم، فينظرون نظرة تعجب من وصف حالهم بهذه الصورة الدَّقيقة، وعلىٰ حين غرَّة تراهم وكأنَّك لا تراهم قد انصرفوا عن هذا المجلس في سرعة عجيبة وتحدٍّ صارح وكأنَّ السُّورة تلاحقهم حتىٰ في انصرافهم لتكشف مساوئهم، فتخيَّل صورتهم يعدون وكأنَّهم يفرُّون من ميدان المعركة وكأنَّ الوجود كله يراهم والعرق يتصبَّب بغزارة من جباههم فتنزل قطراته علىٰ وجوههم حتىٰ تذيقهم مرارة حالهم وسوء مآلهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: 127].

فانصرافهم في هذه الحالة قد يكون انصرافًا عن الإيمان بتلك السُّورة النَّازلة، أو انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ما يكرهون[1]، أو انصرفوا عن حضرته مخافة الفضيحة[2]، أو انصرفوا عن طريق الاهتداء. وذلك أنَّهم حينما بيَّن لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجُّب وتوقُّف ونظر، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنَّة لإيمانهم؛ فهم إذ يصمِّمون على الكفر ويرتبكون فيه كأنَّهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنَّة النَّظر الصَّحيح والاهتداء، ولم يسمعوا قراءة النبي ﷺ سماع من يتدبَّره وينظر في آياته: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24][3].

وخلاصة القول أنَّ انصراف المنافقين في هذا الموضع يحتمل أن يراد الانصراف بالأبدان، أو الانصراف بالقلوب عن الهدىٰ[4].

وعلىٰ ذلك يمكن القول بأنَّ «زيادة جملة ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ لإفادة أنَّهم لم يكتسبوا من نزول السُّورة التي أطلعت المؤمنين علىٰ أسرارهم عبرة ولا قربًا من الإيمان، بل كان قصارىٰ أمرهم التَّعجب والشَّك في أن يكون قد اطَّلع عليهم من يبوح بأسرارهم ثم انصرفوا كأن لم تكن عبرة وهذا من جملة الفتن التي تحلُّ بهم ثم لا يتوبون ولا هم يذكَّرون»[5].

(1) لباب التأويل في معاني التنزيل 3/ 170.
وينظر: تفسير القرآن للسمعاني 2/ 362، والكشف والبيان 5/ 114.
(2) تفسير البيضاوي 3/ 181 - دار الفكر - بيروت.
(3) الجامع لأحكام القرآن 8/ 299.
وينظر: البحر المديد. أحمد بن محمد بن عجيبة 3/ 183 - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية 1423هـ-2002م، والبحر المحيط 5/ 120.
(4) التسهيل لعلوم التنزيل. محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي2/ 88 - دار الكتاب العربي - لبنان - الطبعة الرابعة 1403هـ-1983م.
(5) التحرير والتنوير 11/ 69.

فلما كانت المقدمة تشير صراحة إلىٰ الانصراف عن الاستماع لآيات القرآن الكريم كانت النَّتيجة أن صرف الله قلوبهم بأنَّهم قوم لا يفقهون، فالتَّصنيف عنوانه صرف القلوب، والتَّوصيف خاص بالمنافقين.

و«الصَّرف: ردُّ الشيء من حالة إلىٰ حالة أو إبداله بغيره، يقال صرفته فانصرف»[1].

والمنافقون قد ركنوا إلىٰ ذكاء عقولهم وتمكُّن خبرتهم في أساليب الحيلة والمكر والدَّهاء فانصرفوا عن العمل بموجب الآيات فكان الجزاء من جنس العمل؛ وذلك بأن «صرف الله عن الخير والتَّوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوب هؤلاء المنافقين»[2].

أو «﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان بالقرآن»[3].

فالعقوبة مستحقة لأنَّ الجرم عظيم، حيث «جازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فلما انصرفوا عن العمل ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أي: صدَّها عن الحقِّ وخذلها»[4].

وقال الزَّجاج: أضلَّهم الله مجازاة لهم علىٰ فعلهم[5].

إذًا صرف الله قلوبهم كان نتيجة لعلة وهي ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ «لا يفهمون عن الله؛ ولا عن رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، أو لا يفقهون سوء فهمهم أو عدم تدبُّرهم. والإشارة: زيادة الإيمان عند سماع القرآن يكون علىٰ سبيل التَّصفية والتَّطهير من الأغيار، فبقدر ما يصفو القلب من الأغيار يكشف له من أسرار القرآن»[6].

---

(1) المفردات في غريب القرآن (ص. ر. ف) ص279.

(2) جامع البيان 14/ 582.

(3) الكشف والبيان 5/ 114. وينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل 3/ 170.

(4) تيسير الكريم الرحمن ص356.

(5) لباب التأويل في معاني التنزيل 3/ 170. وينظر: تفسير القرآن للسمعاني 2/ 362.

(6) البحر المديد 3/ 183.

وعلىٰ ذلك فصرف قلوب هؤلاء المنافقين وتحويلها من جهة إلىٰ أخرىٰ يتناسب مع هذا المقام الذي ينصرفون فيه عن آيات القرآن وهي تتنزل علىٰ قلب خاتم الأنبياء والمرسلين تكشف مساوئهم وتفضح هذا الخفايا التي يعتقدون أنَّها خارج نطاق المعرفة، وكأنَّ لهم مجموعة من القلوب كل قلب منها يختلف عن الآخر تمامًا.

Opeikandl.com

الشكل الرابع: طبع القلوب

تختلف الرؤىٰ وتتعدَّد الاتِّجاهات عندما ترىٰ دياجير الظَّلام قد اختلطت بشعاع النور وجهالة الباطل أمست وضياء الحق سواء، ولكن أن ترىٰ آيات القرآن الكريم تحدِّثك بحقائق الماضي وأمل الحاضر وسعادة المستقبل بكل دقَّة ووضوح، تعرض عليك الإيمان بكل وسيلة من وسائل الحجَّة والإقناع، وتضرب لك بذلك الأمثال حتىٰ ترىٰ صورة الحقِّ قد طبعت في قلبك واختلطت بعظمك ولحمك، فتنظر إلىٰ صورة المؤمنين في جنَّة عرضها السَّماوات والأرض فرحين يتنعَّمون، وصورة الكافرين وهم في عذاب جهنم ماكثون معذَّبون، ثم بعد ذلك تراك عن آيات الله من المعرضين غير المتفكِّرين أو المتدبِّرين، فهذا هو طبع القلوب كما سمَّاه القرآن الكريم.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 58، 59].

والكافرون في هذه الصُّورة «مرَّة أخرىٰ أمام القرآن، وفيه من كل مَثَل؛ وفيه من كل نمط من أنماط الخطاب، وفيه من وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول؛ وفيه من شَتَّىٰ اللَّمسات الموحية العميقة التَّأثير. وهو يخاطب كل قلب وكل عقل في كل بيئة وكل محيط. وهو يخاطب النَّفس البشريَّة في كل حالة من حالاتها، وفي كل طور من أطوارها»[1].

ولكن هذه الحالة الخاصَّة تطرق مسامعها الآيات ولكنَّها لا تنفذ إلىٰ القلوب؛ وذلك لطرح الجواب قبل السؤال، وتبنِّي فكرة الهدم والإفساد، وما ذلك إلا «لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا جئتنا بزور باطل»[2].

(1) في ظلال القرآن 5/ 2777، 2778.

(2) البحر المديد 5/ 541. =

واتهام القرآن الكريم بالزور والباطل جريمة تستحق العقاب، إضافة إلىٰ تكذيبهم النبي المختار ﷺ فكان الجزاء وكانت النَّتيجة أن طبع الله علىٰ قلوبهم «فهم الذين لا يعلمون مطموسو القلوب، لا تنفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله، متطاولون علىٰ أهل العلم والهدىٰ. ومن ثَمَّ يستحقُّون أن يطمس الله علىٰ بصيرتهم، وأن يطبع علىٰ قلوبهم، لما يعلمه سبحانه عن تلك البصائر وهذه القلوب!»[1].

وقد درج المفسِّرون علىٰ تفسير الطَّبع بالختم في قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حيث قيل: «الطَّبع والختم بمعنىٰ واحد، وهو الذي يمنع القلب من البصر»[2].

ودلالة الآية علىٰ هذا التَّفسير: «كذلك يختم الله علىٰ قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به يا محمد من عند الله من هذه العِبَر والعظات، والآيات البيِّنات، فلا يفقهون عن الله حُجَّة، ولا يفهمون عنه ما يتلو عليهم من آي كتابه، فهم لذلك في طغيانهم يتردَّدون»[3].

وقيل بمعنىٰ آخر: «مثل ذلك الطَّبع -وهو الختم- يطبع الله علىٰ قلوب الجهلة؛ الذين علم الله منهم اختيار الضَّلال، حتىٰ سمُّوا المحققِّين مبطلين، وهم أغرق خلق الله في تلك الصِّفة»[4].

وفي الجمع بين الطَّبع والختم في إطار وقالب واحد تأكيد لما ذكر بعض أهل اللغة، حيث قال ابن فارس: «الخاء والتاء والميم أصل واحد، وهو بلوغ آخر الشيء. يقال: ختمت العمل، وختم القارئ السُّورة. فأما الختم، وهو الطَّبع

= وينظر: تفسير النسفي. أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. تحقيق. مروان محمد الشعار 3/ 223 - دار النفائس - بيروت - 2005م.

(1) في ظلال القرآن 5/ 2778.

(2) تفسير القرآن للسمعاني 4/ 223.

(3) جامع البيان 20/ 120.

(4) البحر المديد 5/ 541.

علىٰ الشيء، فذلك من الباب أيضًا، لأنَّ الطَّبع علىٰ الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره، في الإحراز»[1].

ويقول عن الطَّبع: «الطَّاء والباء والعين أصل صحيح، وهو مثلٌ علىٰ نهاية ينتهي إليها الشيء حتىٰ يختم عندها. يقال: طبعت علىٰ الشيء طابعًا، ثم يقال علىٰ هذا: طَبْعُ الشيء وسجيته. ومن ذلك طبع الله علىٰ قلب الكافر، كأنَّه ختم عليه حتىٰ لا يصل إليه هدىٰ ولا نور، فلا يوفق لخير. ومن ذلك أيضًا: طَبْع السَّيْف والدِّرهم، وذلك إذا ضربه حتىٰ يكمِّله»[2].

وذكر ابن منظور مثل ذلك فـ «الختم علىٰ القلب: ألا يفهم شيئًا، ولا يخرج منه شيء، لأنَّه طُبع. وفي التنزيل العزيز: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، هو كقوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: 108] فلا تعقل ولا تعي شيئًا، قال أبو إسحاق: معنىٰ ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التَّغطية علىٰ الشيء والاستيثاق من ألا يدخله شيء، كما قال جَلَّ وعلا: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24]، وفيه: «﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ معناه غلب وغطَّىٰ علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون»[3].

وذكر عن طبع: «والطَّبع: الختم وهو التأثير في الطِّين ونحوه ... وطبع الشيء وعليه يطبع طبعًا: ختم ... قال ابن الأثير: كانوا يرون أن الطَّبع هو الرَّين، قال مجاهد: الرَّين أيسر من الطَّبع، والطَّبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله، هذا تفسير الطَّبْع، بإسكان الباء ... الطَّبْع بالسُّكون الختم»[4].

---

(1) مقاييس اللغة لابن فارس. حققه. عبد السلام محمد هارون (خ. ت. م) 2/ 245 - دار الفكر - 1399هـ-1979م.

(2) السابق (ط. ب. ع) 3/ 438.

(3) لسان العرب 2/ 1101.

(4) لسان العرب 4/ 2635.

وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. تحقيق. طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي 3/ 249 - المكتبة العلمية - بيروت - 1399هـ-1979م.

وعلىٰ ذلك فـ«الطَّبع إحكام الغلق بجعل طين ونحوه علىٰ سدِّ المغلوق بحيث لا ينفذ إليه مستخرج ما فيه إلا بعد إزالة ذلك الشيء المطبوع به، وقد يسمون علىٰ ذلك الغلق بسمة تترك رسمًا في ذلك المجعول، وتسمىٰ الآلة الواسمة طابَعًا -بفتح الباء- فهو يرادف الختم»[1].

«والختم: حقيقته السَّدُّ علىٰ الإناء والغلق علىٰ الكتاب بطين ونحوه مع وضع علامة مرسومة في خاتم ليمنع ذلك من فتح المختوم، فإذا فُتِح علم صاحبه أنَّه فتح لفساد يظهر في أثر النقش. وقد اتَّخذ النبي ﷺ خاتمًا لذلك، وقد كانت العرب تختم علىٰ قوارير الخمر ليصلحها انحباس الهواء عنها وتسلم من الأقذار في مدة تعتيمها ... والختم في اصطلاح الشرع استمرار الضَّلالة في نفس الضَّال أو خلق الضَّلالة، ومثله الطَّبع والأكنَّة»[2].

ومن هنا فـ«الختم والطَّبع: يقال علىٰ وجهين: مصدر ختمت وطبعت: وهو تأثير الشيء كنفس الخاتم والطَّابع. والثاني: الأثر الحاصل عن النَّقش ...»[3].

فالختم والطَّبع يلتقيان في معنىٰ واحد، فالتعبير بهما «إشارة إلىٰ ما أجرىٰ الله به العادة: أنَّ الإنسان إذا تناهىٰ في اعتقاد باطل، أو ارتكاب محظور، ولا يكون منه تلفت بوجه إلىٰ الحقِّ، يورثه ذلك هيئة تمرنه علىٰ استحسان المعاصي ...»[4].

لذلك ذكر بعض المفسرين أنَّ «﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ أي طبع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ والختم والطبع بمعنىٰ واحد وهما التغطية للشيء والاستيثاق من أن يدخله شيء آخر. فمعنىٰ الآية: طبع الله علىٰ قلوبهم وأغلقها وأقفلها فليست تعي خيرًا ولا تفهمه. يدل عليه قوله: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ وقال بعضهم: معنىٰ الطَّبع

(1) التحرير والتنوير 6/ 17.

(2) السابق 1/ 254، 255.

(3) المفردات في غريب القرآن (خ. ت. م) ص205.

(4) السابق الصفحة نفسها.

والختم: ختم الله عليهم بالكفر والشَّقاء كما يقال للرَّجل: ختمت عليك أن لا تفلح أبدًا ...»[1].

ومن هنا يبدو وجود التقارب الدلالي بين لفظتي (طبع وختم) كما هو ثابت في هذه النُّصوص السَّابقة حتىٰ لا تكاد أن تشعر بوجود فرق بينهما -مهما حاولت تلمُّس ذلك- ولكن تظلُّ لغة القرآن الكريم لها عالمها الخاص الذي تتميَّز به وتعبيراتها الدَّقيقة التي لا تقف عند حدٍّ، فما دامت بعض السِّياقات القرآنية قد وردت بلفظة الطَّبع والأخرىٰ بالختم فهذا في حد ذاته دليل واضح علىٰ وجود الفرق بينهما وإن كان هناك معنىٰ عامًّا يجمع بينهما، فكلاهما ينتمي إلىٰ عالم طمس البصر والبصيرة ووصول صاحبه الموسوم بذلك إلىٰ أقصىٰ درجات الذُّنوب والمعاصي حتىٰ لا تكاد أن تجد له قلبًا يشعر أو جوارح تتألم، فكلاهما فيه دلالة علىٰ عدم استعمال العقل وتنحيته جانبًا ومن ثم عدم نفاذ الخير إلىٰ القلب، ولكن تظلُّ مرحلة الطَّبع أقوىٰ وأشد من مرحلة الختم، فبعض النَّاس يتدرَّج في سلم الشَّر حتىٰ يكاد أن يصل إلىٰ درجة الشَّياطين، وكلما انتهىٰ من مرحلة بدأ في أخرىٰ وكأنها سلسلة منتظمة الحلقات فالخير لا يعرف لقلبه سبيلاً حتىٰ إذا بلغ النِّهاية ختم الله علىٰ قلبه فإن أصبح الشَّر له عادة وسجيَّة لا يكاد أن يشعر معه بقيمة ذنبه وأن هذه الأمور تنتمي إلىٰ هذا العالم طبع الله عليه، ولذلك قيل بأن: «الطبع: أن تصوِّر الشيء بصورة ما كطبع السِّكَّة وطبع الدَّراهم وهو أعمُّ من الختم وأخصُّ من النَّقش»[2].

ف «الفرق بين الختم والطَّبع أنَّ الطَّبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه فهو يفيد من معنىٰ الثَّبات واللزوم مالا يفيده الختم، ولهذا قيل طبع الدرهم طبعًا. وهو الأثر الذي يؤثره فيه فلا يزول عنه، كذلك أيضًا قيل طبع الإنسان لأنَّه ثابت غير زائل، وقيل طبع فلان علىٰ هذا الخلق إذا كان لا يزول عنه»[3].

(1) الكشف والبيان 1/ 150.

(2) المفردات في غريب القرآن ص449.

(3) الفروق اللغوية. أبو هلال العسكري ص64 - دار الأفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية 1977م.

لذلك تأمَّل جيدًا لفظة (الطَّبع) في أحد عشر موضعًا قرآنيًّا تراها مفصَّلة تفصيلاً دقيقًا يتَّصف بها هؤلاء الكافرون المكذِّبون المتكبِّرون الذين لا يعلمون ولا يفقهون الحقيقة ولا يتدبَّرون فعلىٰ قلوبهم طابع وثبات لا يزول علىٰ سبيل المجاز؛ وذلك بورودها بصورة (طبع، ونطبع، ويطبع، وطبع، فطبع)[1]، بخلاف (الختم) الذي ورد بصورة (ختم، ونختم، ويختم) في خمسة مواضع[2] فلا تجد فيه هذا الأثر.

(1) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي (ط. ب. ع) ص425.

(2) السابق (خ. ت. م) ص227.

obeikandl.com

الشكل الخامس: غمرة القلوب

يظنُّ بعض الكافرين أنَّه من أجل أن ترفع له راية وتكون له قيمة وقامة أن يدخل في باب العمىٰ والجهالة والضَّلالة ويؤكِّد أن ما سجَّله القرآن الكريم من كتابة الأعمال وباب التَّكليف من باب الخرافة أو الأمور الخارقة للعادة فتراه يمسي ويصبح علىٰ غير اعتقاد وفي قلبه جفاء وغطاء يمنعه من فقه الأسرار في باب المحظورات، فيظن أنَّ في المحظورات تقييد وتكبيل وكبت للحريات مع أنَّه قد ضيَّق من دائرتها وحدَّدها في أبواب مخصوصة تتأمَّلها فتجد أن جانب الشَّرِّ فيها يطغىٰ علىٰ جانب الخير ويفقده توازنه؛ وذلك بما يؤدي إلىٰ إلحاق الضَّرر بالنَّفس والغير، فهي في الحقيقة أمن وأمان وحصن وسلام فتراه معرضًا عن القرآن غير معترف بما ذكره من كتابة الأعمال، في حين تجد باب المباحات عالمًا آخر من السَّعة والرَّحابة يتناسب مع طبيعة الفرد وحبه للحريَّة والانطلاق ولكن مع التقييد والانضباط بضوابط الدِّين، وكل ذلك موضوع في إطار ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 62].

والتَّفسير جليُّ الدلالة لا لبس فيه ولا غموض، حيث «يقول تعالىٰ مخبرًا عن عدله في شرعه علىٰ عباده في الدنيا: أنَّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنَّه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يبخسون من الخير شيئًا، وأما السَّيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين»[1].

إذًا «لقد شرع الله التَّكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس؛ وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطَّاقة، لا يظلمون بتحميلهم ما

(1) تفسير القرآن العظيم 5/ 481.

لا يطيقون؛ ولا يبخسهم شيئًا مما يعملون، وكل ما يعملونه محسوب في سجل ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ ويبرزه ظاهرًا غير منقوص. والله خير الحاسبين ...»[1].

فاجلس واستمع وتأمَّل في الآيات حتىٰ تؤمن، ولكنك سافرت إلىٰ بلد بعيد بينه وبين الإيمان بون شاسع فأصبت بغمرة القلوب والتي تفصح عن هذا الغطاء الذي جعل بينك وبين الفهم حجابًا وحاجزًا.

و«أصل الغمر: إزالة أثر الشيء. ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله: غمر، وغامر ... والغمرة: معظم الماء السَّاتر لمقرها. وجعل مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها»[2].

وقد اقترنت جهالة هذه القلوب بكثير من المصطلحات عند أقوال المفسِّرين، فتعدَّدت حولها الدَّلالات، فمنهم من ذكر أن غمرة هذه القلوب دلالته «عمىٰ عن هذا القرآن. وعني بالغمرة: ما غمر قلوبهم فغطَّاها عن فهم ما أودع الله كتابه من المواعظ والعِبَر والحجج. وعني بقوله: ﴿مِنۡ هَٰذَا﴾ من القرآن»[3].

أو«أي في غفلة وغطاء متحيرة. ويقال غمره الماء: إذا غطَّاه. ونهر يغمر من دخله ورجل غمر: تغمره آراء الناس. وقيل غمرة لأنَّها تغطِّي الوجه ومنه دخل في غمار الناس في قول من قال معناه فيما يغطِّيه من الجمع»[4].

ويقال: «يعني في غفلة عن الإيمان بهذا القرآن. ويقال هم في غفلة من هذا الذي وصفناه من كتابة الأعمال»[5].

---

(1) في ظلال القرآن 4/ 2473.

(2) المفردات في غريب القرآن (غ. م. ر) ص547.

(3) جامع البيان 19/ 48.

وينظر: تفسير القرآن للسمعاني 3/ 481، والكشف والبيان 7/ 351، ولباب التأويل 5/ 440، وتفسير القرآن العظيم 5/ 482.

(4) معاني القرآن للنحاس. تحقيق. محمد علي الصابوني 4/ 471 - جامعة أم القرىٰ - مكة المكرمة - الطبعة الأولىٰ 1409هـ.

(5) بحر العلوم. نصر بن محمد السمرقندي. تحقيق د. محمود مطرحي 2/ 485 - دار الفكر - بيروت.

وقد يقصد بذلك الكفر والشَّك[1].

فهذا القرآن الكريم كتاب ينطق بالحق والصِّدق والهدىٰ، آياته واضحات بيِّنات لا شبهة فيها ولا خلاف لمن يبغي الحقائق ولكن أن تبسط يدك بالنَّهار لا تراها فتحكم علىٰ بصرك بالعمىٰ -وقد عافاك الله منه- وعلىٰ بصيرتك بالجهالة فتجمع بين أمرين كلاهما أشدُّ سوءًا من الآخر فترىٰ وكأنَّك لا تري فذلك هو الخطب الأعظم، وقد رضي الكافرون المكذِّبون بذلك وأيقنوا به، حيث «يخبر تعالىٰ أنَّ قلوب المكذِّبين في غمرة من هذا، أىٰ: وسط غمرة من الجهل والظُّلم والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلىٰ هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل إلىٰ قلوبهم منه شيء، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 45، 46] فلما كانت قلوبهم في غمرة منه، عملوا بحسب هذا الحال، من الأعمال الكفريَّة، والمعاندة للشرع، ما هو موجب لعقابهم»[2].

فالجهل والظُّلم والغفلة والإعراض والغطاء والعمىٰ والضَّلال والكفر والشِّرك نتائج لعدم النَّظر في آيات القرآن الكريم فكلها تدخل في دائرته وهو ردُّ فعل طبيعي يوازي أو يساوي الكفر، فقلب الكافر ينتج جميع هذه الأمور فهو لا يعي ولا يفهم

(1) فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي الشوكاني 3/ 491 - دار الفكر - بيروت. و«اختيار أبي مسلم أن هذه الآيات من صفات المشفقين كأنَّه سبحانه قال بعد وصفهم: (ولا نكلف نفسًا إلا وسعها) ونهايته ما أتىٰ به هؤلاء المشفقون ﴿وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ﴾ يحفظ أعمالهم ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا﴾ هو أيضًا وصف لهم بالحيرة كأنَّه قال وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيِّرين في جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ولهم أعمال من دون ذلك أي لهم أيضًا من النوافل ووجوه البرِّ سوىٰ ما هم عليه إمَّا أعمالاً قد عملوها في الماضي أو سيعملونها في المستقبل». مفاتيح الغيب 23/ 95.

(2) تيسير الكريم الرحمن ص554.

حقيقة القرآن، وكأنَّ بينه وبين الإدراك والفهم حجابًا، ومن ثَمَّ فما اتصفوا به لا يدخل في دائرة التَّعجب بل هو في سياقه الموضوعي الذي فرضه علىٰ نفسه وسَلَّمَ به.

obeikandl.com

الشكل السادس: قسوة القلوب

من المسائل التي لا تقبل القسمة علىٰ اثنين ومن ثم لا تقبل التَّرجيح مسالة الاختيار، فتعدُّد الأشكال وتنوُّع الصور واختلاف الألوان لا مجال له هنا، فإمَّا أن تكون صاحب عقل راجح وفكر مستنير ورأي جرئ فتقف أمام عظمة القرآن الكريم وجلاله وقفة المحبِّين المستسلمين فيشرح الله صدرك للإسلام، ولكن أن تتشكَّل بصورة الإنسان يمكن أن تخاطِب وتخاطَب، والحقيقة تخدع الأبصار وتوهم العقول، فترىٰ قلوبًا الباطل أقرب إليها من شراك نعلها، وهدم الحق آية من آيات صدق حديثها ودليل من أدلة رفعتها وعلو شأنها فتعرض عن القرآن وتنأىٰ عنه فتجف منابع الخير فيها، فتلك هي القلوب القاسية من ذكر الله.

فهذان وجهان متناقضان وصورتان متعارضتان، لأصحاب القلوب الحيَّة والميِّتة وهما يشبهان قوله تعالىٰ: «﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122]»[1].

قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّمَر: 22].

«هذه الآية تصوِّر حقيقة القلوب التي تتلقَّىٰ الإسلام فتنشرح له وتندىٰ به، وتصور حالها مع الله. حال الانشراح والتفتح والنَّداوة والبشاشة، والإشراق والاستنارة. كما تصوِّر حقيقة القلوب الأخرىٰ في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها، وعتمتها وظلامها، ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره، ليس قطعًا كالقاسية قلوبهم من ذكر الله. وشتان بين هؤلاء وهؤلاء»[2].

إنَّ حياة القلوب بالقرآن كحياة النَّبات بالماء، وموت القلوب كصخرة قاسية لا يمكن أن يتفجَّر منها الماء «وكما ينزل الماء من السَّماء، فينبت لهم به زرعًا

(1) تفسير القرآن العظيم 7/ 93.

(2) في ظلال القرآن 5/ 3048.

مختلفًا ألوانه؛ كذلك ينزل من السماء ذكرًا تتلقَّاه القلوب الحيَّة، فتنفتح وتنشرح وتتحرَّك حركة الحياة، وتتلقَّاه القلوب القاسية كما تتلقَّاه الصخرة القاسية التي لا حياة فيها ولا نداوة ! والله يشرح للإسلام قلوبًا يعلم منها الخير، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضئ. والفرق بين هذه القلوب وقلوب أخرىٰ قاسية فرق بعيد»[1].

والقسوة: غلظ القلب، وأصله من حجر قاس[2]، أو غلظ القلب ونبوه عن الرِّقة والموعظة وصلابته حتىٰ لا ينفعل لخير[3].

«والقسوة والقساوة توصف بها الأجسام وتوصف بها النُّفوس المعبَّر عنها بالقلوب فالمعنىٰ الجامع للوصفين هو عدم قبول التَّحول عن الحالة الموجودة إلىٰ حالة تخالفها. وسواء كانت القساوة موضوعة للقدر المشترك بين هذين المعنيين الحسِّي والقلبي وهو احتمال ضعيف، أم كانت موضوعة للأجسام حقيقة واستعملت في القلوب مجازًا وهو الصحيح، فقد شاع هذا المجاز حتىٰ ساوىٰ الحقيقة وصار غير محتاج إلىٰ القرينة فآل اللفظ إلىٰ الدلالة علىٰ القدر المشترك بالاستعمال لا بأصل الوضع»[4].

وعلىٰ ذلك فإنَّ «قسوة القلب: مستعار لقلَّة تأثر العقل بما يسدىٰ إلي صاحبه من المواعظ ونحوها»[5].

---

(1) السابق الجزء نفسه والصفحة.

(2) المفردات في غريب القرآن (ق. س. و) ص404. والقاسية قلوبهم قيل: أبو جهل وأتباعه من قريش، وقيل نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ﷺوفي أبي بن خلف، وقيل: في علي وحمزة وفي أبي لهب وولده، وقيل في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل.
ينظر: لباب التأويل 6/ 72، وتفسير العز بن سلام 1/ 101 – دار بن حزم – بيروت – تحقيق د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبي – الطبعة الأولىٰ 1416هـ–1996م.

(3) المحرر الوجيز. ابن عطية الأندلسي. تحقيق. عبد السلام عبد الشافي محمد 2/ 198 – دار الكتب العلمية – لبنان – الطبعة الأولىٰ 1413هـ–1993م. وينظر: لباب التأويل 6/ 72.

(4) التحرير والتنوير 1/ 562.

(5) السابق 23/ 382.

وقساوة القلوب في الآية تتجه نحو دلالة الإعراض والانصراف عن القرآن الكريم، وأصحاب هذه القلوب لهم الويل والعقاب «فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله الله تعالىٰ ذكره، مذكرًا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدِّق بما فيه»[1].

وعلىٰ ذلك فـ «المراد بذكر الله القرآن وإضافته إلىٰ الله زيادة تشريف. والمعنىٰ: أنَّهم إذا تليت آية اشمأزُّوا فتمكَّن الاشمئزاز منهم فقست قلوبهم. وحاصل المعنىٰ: أنَّ كفرهم يحملهم علىٰ كراهية ما يسمعونه من الدَّعوة إلىٰ الإسلام بالقرآن فكلَّما سمعوه أعرضوا وعاندوا وتجدَّدت كراهية الإسلام في قلوبهم حتىٰ ترسَّخ تلك الكراهية في قلوبهم فتصير قلوبهم قاسية»[2].

فهذه القلوب قد وصفت بالقسوة؛ لأنَّها إذا لم تستجب للقرآن الكريم فهي من باب أولىٰ لا تستجيب لغيره، فتعذَّر وصول الخير إليها علىٰ وجه الإجمال، فهي قلوب لا تتفجَّر إلا بالشَّرِّ ولا تلين إلا للضَّلال، ولا تستمع إلا لنداء الشَّيطان، فهي «لا تلين لكتابه، ولا تتذكَّر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربِّها، ملتفتة إلىٰ غيره، فهؤلاء لهم الويل الشَّديد، والشَّرُّ الكبير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال مَنْ أعرض عن وليه؟ ومن كل السَّعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل علىٰ كل ما يضره؟!!»[3].

ولما كانت قسوة القلوب هي عنوان هذا التَّصنيف كان لابد من تفسير هذا العنوان وطرح السؤال والجواب وما بين القوسين يحمل هذا التَّوضيح، فـ «فيه سؤال، وهو أنَّ ذكر الله سبب لحصول النُّور والهداية وزيادة الاطمئنان كما قال: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28] فكيف جعله في هذه الآية سببًا لحصول قسوة القلب، والجواب أن نقول إنَّ النَّفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة

(1) جامع البيان 21/ 278.

(2) التحرير والتنوير 23/ 382.

(3) تيسير الكريم الرحمن ص772. وينظر: تفسير القرآن العظيم 7/ 93.

العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلىٰ الطبائع البهيمية والأخلاق الذَّميمة، فإنَّ سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة، وتقرير هذا الكلام بالأمثلة فإنَّ الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشَّمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح، وقد نرىٰ إنسانًا واحدًا يذكر كلامًا واحدًا في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره، وما ذاك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النُّفوس ومن اختلاف أحوال تلك النُّفوس ... إذا عرفت هذا لم يبق أيضًا أن يكون ذكر الله يوجب النُّور والهداية والاطمئنان في النُّفوس الطَّاهرة الروحانية، ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النُّفوس الخبيثة الشَّيطانية، إذا عرفت هذا فنقول إنَّ رأس الأدوية التي تفيد الصِّحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالىٰ، فإذا اتَّفق لبعض النُّفوس أن صار ذكر الله تعالىٰ سببًا لازدياد مرضها كان مرض تلك النَّفس مرضًا لا يرجىٰ زواله ولا يتوقع علاجه وكانت في نهاية الشَّرِّ والرَّداءة، فلهذا المعنىٰ قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ . .»[1].

وعلىٰ ذلك: «كان القرآن أن سبب اطمئنان في قلوب المؤمنين.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾. وكان سببًا في قساوة قلوب الكافرين. وسبب ذلك اختلاف القابلية فإنَّ السَّبب الواحد تختلف آثاره وأفعاله باختلاف القابلية، وإنَّما تعرف خصائص الأشياء باعتبار غالب آثارها في غالب المتأثرات، فذكر الله سبب في لين القلوب وإشراقها إذا كانت القلوب سليمة من مرض العناد والمكابرة والكبر، فإذا حَلَّ فيها هذا المرض صارت إذا ذكر الله عندها أشد مرضًا مما كانت عليه»[2].

(1) مفاتيح الغيب. فخر الدين الرازي 26/ 232 – دار الكتب العلمية – بيروت – 1421هـ–2000م.
وينظر: لباب التأويل 6/ 72.

(2) التحرير والتنوير 23/ 382.

ومن هنا فباب السَّماع الخاص بتلاوة القرآن يقابله في هذا النوع قسوة القلوب، فماذا ينتظر من الكافر في هذه الحالة سوىٰ هذا الجحود الذي ينكر الحق ولا يلين لسماعه؟! فإذا كانت الأرض القاسية الصُّلْبة لا تتفجَّر بالنَّبات لعدم قبول الماء فكذلك قلوب هؤلاء لا تنتج خيرًا لأنَّها لم تقبله ولم تتذوق طعمه.

obeikandl.com

الشكل السابع: أقفال القلوب

قد يقرأ بعض الناس مئات بل ألآلف الكتب بين فنون مختلفة من فنون العلم والثَّقافة ويصل في مرحلة الإدراك إلىٰ درجة الإبداع فيقدِّم الولاء والشُّكر لتلك الظُّروف التي أنعمت عليه بلقب القارئ الجيد والتي هيَّئته ومكَّنته من تحويل قراءاته إلىٰ فكر ينبض في قلوب الآخرين ولكن شيئًا ما يحول بينه وبين تدبُّر آيات الذِّكر الحكيم، فإذا قرأ لم يفهم وإذا فهم لم يتدبَّر وكأنَّ قلبه في واد وعالم القرآن الكريم في واد آخر، وهذه هي مأساة المنافقين الذي طلبوا أن تحجب عنهم الهداية فحجبها الله عنهم، فقد ترىٰ من بعيد الحقَّ علىٰ وجوههم والصِّدق في أحاديثهم ولكن اقترب حتىٰ ترىٰ الأشياء علىٰ حقيقتها وأقفال القلوب تسيطر علىٰ عالمهم.

فقد ينفتح قلب الكافر في يوم من الأيام ويطلب الهداية، أما قلب المنافق فإنَّه من الصَّعب بل من المستحيل أن ينفتح للإيمان بعد أن ذاق مرارة النِّفاق، لذلك كان التَّعبير في هذا الشَّكل بأقفال القلوب.

فالصَّفحة تبدو بيضاء أو سوداء بمجرد النَّظر إليها لا تحتاج إلىٰ تعليق، وهذه أو تلك تفصح عن نفسها وتعلن عن مبدئها دون خوف أو وجل فتتعامل معها من هذا المنطلق ولكن أن تتوارىٰ خلف ستار الإيمان فتعلن أمام الملأ الصِّدق وإخلاص النيَّة فتبدو كالصَّدِّيق أبي بكر والحقيقة أنَّ في القلب ظلامًا كظلمة قلب أبي جهل وربَّما أكثر، فتلك هي المأساة، حيث تصوِّر لخلق الله أنَّك ملك مقرَّب ولكن بينك وبين نفسك فأنت أشدُّ عليهم من إبليس، حيث صدق إبليس مع نفسه فأعلن العصيان صراحة ولكنك كذبت علىٰ نفسك وكذَّبت ربَّك، هذا هو حال المنافقين الذين يقرءون الغثَّ فينتفعون به ويتأثَّرون، ولكن مع كتاب الهداية والرَّشاد تجد علىٰ القلوب أقفالها.

و«القفل جمع أقفال. يقال: أقفلت الباب. ويستعمل ذلك مثلاً لكل مانع للإنسان من تعاطي فعل فيقال: فلان مقفل عن كذا.

قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾»[1].

ومع تفسير وتوضيح أقفال القلوب في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ اختلفت العبارات وتنوَّعت ولكن مع شيء من التَّقارب والتَّآلف فتارة تكون بمعنىٰ الرَّين وذلك علىٰ معنىٰ «بل علىٰ قلوب أقفالها وهو الرَّين الذي منعهم من الإيمان»[2]، فهو «استعارة للرَّين الذي منعهم الإيمان»[3].

وتارة بمعنىٰ الختم، «يعني أقفل علىٰ قلوبهم ومعناه أن أعمالهم لغير الله ختم علىٰ قلوبهم»[4].

وتارة أخرىٰ بمعنىٰ القاسية، أي «أم علىٰ قلوب أقفالها قاسية»[5].

وقد تكون بمعنىٰ الطَّبع «يعني الطَّبع علىٰ القلوب»[6].

ومن العلماء من فرَّق بين بعض المقاربات في الدلالة، حيث «قال أبو معاذ: الرَّان أن يسودّ القلب من الذنوب، والطَّبع أن يطبع علىٰ القلب وهو أشدّ من الرَّان، والأقفال أشدّ من الطَّبع، وهو أن يقفل علىٰ القلب، قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾»[7].

و«نكرت القلوب لأنَّ المراد علىٰ قلوب قاسية منهم أمرها في ذلك»[8].

«والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق. وإضافة الأقفال

(1) محمد من الآية 24. المفردات في غريب القرآن (ق. ف. ل) ص409.

(2) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي). أحمد بن محمد الثعالبي 4/ 168 - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

(3) المحرر الوجيز 5/ 105.

(4) بحر العلوم 3/ 288.

(5) البحر المحيط 8/ 82.

(6) تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق. أحمد فريد 3/ 239 - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1424هـ-2003م.

(7) تفسير السراج المنير 4/ 366.

(8) تفسير النسفي 4/ 124.

إلىٰ القلوب للتنبيه علىٰ أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب. ومعنىٰ الآية أنَّه لا يدخل في قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشِّرك لأنَّ الله سبحانه قد طبع عليها والمراد بهذه القلوب قلوب هؤلاء المخاطبين»[1].

وقد «أضيفت الأقفال إلىٰ القلوب لأنَّ المراد الأقفال المختصَّة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تفتح نحو الرَّين والختم والطبع»[2].

وإن كانت تعبيرات المفسِّرين قريبة الشَّبه بدلالة الأقفال في الآية إلا أنَّ كل تعبير له أسرار خاصَّة في سياقه، فالراجح أنَّ التَّعبير بالأقفال يوحي بدلالة الإغلاق التَّام الذي أحكم واشتدَّ غلقه فلا يمكن أن يرىٰ النور أبدًا وكأنَّ هذه القلوب قد فطرت علىٰ الشَّرِّ فاشتدَّ عوده مع صباها واكتمل مع شبابها فلا يمكن أن تقبل الخير بأيِّ حال من الأحوال، «أي: قد أغلق علىٰ ما فيها من الشَّرِّ وأقفلت، فلا يدخلها خير أبدًا هذا هو الواقع»[3].

إذًا فالسؤال واضح وصريح يحمل جانب التَّوبيخ والإنكار «أفلا يتدبَّر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله علىٰ نبيِّه -عليه الصلاة والسلام- ويتفكَّرون في حُججه التي بَيَّنها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ يقول: أم أقفل الله علىٰ قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعِبَر»[4].

«﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يعني يتفكَّرون فيه وفي مواعظه وزواجره وأصل التَّدبُّر التَّفكُّر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه أمره. وتدبُّر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب وجمع الهم وقت تلاوته ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصِّرف

(1) فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي الشوكاني 5/ 38 - دار الفكر - بيروت.

(2) تفسير النسفي 4/ 124.

(3) تيسير الكريم الرحمن ص930.

(4) جامع البيان 22/ 79.

وخلوص النيَّة ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ يعني بل علىٰ قلوب أقفالها وجعل القفل مثلاً لكل مانع للإنسان في تعاطي فعل الطَّاعة. يقال: فلان مقفل عن كذا بمعنىٰ ممنوع منه»[1].

«فإن قلت: إذا كان الله تعالىٰ قد أصمَّهم وأعمىٰ أبصارهم وأقفل علىٰ قلوبهم وهو بمعنىٰ الختم فكيف يمكنهم تدبُّر القرآن مع الموانع الشَّديدة. قلت: تكليف ما لا يطاق جائز عندنا، لأنَّ الله أمر بالإيمان لمن سبق في علمه أنَّه لا يؤمن فكذلك هنا والله يفعل ما يريد لا اعتراض لأحد عليه. وقيل: إنَّ قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ المراد به التَّأسِّي. وقيل: إنَّ هذه الآية محققة للآية المتقدِّمة وذلك أنَّ الله تعالىٰ لما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: 23]. فكان قوله: أفلا يتدبَّرون القرآن كالتهييج لهم علىٰ ترك ما هم فيه من الكفر الذين استحقُّوا بسببه اللعنة أو كالتَّبكيت لهم علىٰ إصرارهم علىٰ الكفر. والله أعلم بمراده»[2].

«ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبُّر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنَّه معرض عنها، غير متدبِّر لها، فيستحق الإنكار والتَّوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به علىٰ التدبُّر، وقد شكا النبي ﷺ إلىٰ ربِّه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30]. وهذه الآيات المذكورة تدل علىٰ أن تدبُّر القرآن وتفهُّمه وتعلُّمه والعمل به أمر لابدَّ منه للمسلمين»[3].

فعدم التَّدبُّر والتَّفكُّر في هذا الباب الخاصِّ بآيات القرآن الكريم ناسبه أقفال

(1) لباب التأويل 6/ 182.

(2) السابق الجزء نفسه والصفحة.

(3) أضواء البيان 7/ 429.

قلوب المنافقين التي حبست كل خير ومنعته من أداء دوره في هداية الخلق، فإذا كانت هذا القلوب قد منعتها هذه الأقفال وهذا الانغلاق من الإيمان بهذا الكتاب العزيز فكيف تتدبَّر في آياته.

obeikandl.com

الشكل الثامن: أكِنَّة القلوب

أصبحت آيات القرآن الكريم تُتْلىٰ علىٰ مسامعنا الآن صباح مساء باختلاف النَّغمات وجميل الأصوات مع تعدُّد السُّبل والوسائل وتنوع أشكالها فترىٰ القلوب التي تشبه الحجارة الصَّمَّاء قد تحوَّلت وتبدَّلت إلىٰ زهرة نديَّة وجنَّة خضراء، قد ينشغل المسلم عنه بعض الوقت وتستهويه وتنفرد به شهوات وضرورات الحياة ولكنَّه يعود إليه يومًا ما طالبًا من ربه الصَّفح والعفو والغفران فتعود إليه الحياة التي افتقدها والرُّوح التي كادت أن تبلغ الحلقوم، ولكن ماذا يريد الكافر من القرآن؟

عندما يستعير الإنسان ذاكرة وفكر الشيطان يفكِّر ويخطِّط له، يستمع لآيات القرآن الكريم بهدف تحقيق الباطل بلا وعي ولا تدبُّر وإذا تذكَّر وانتبه أعرض والسِّرُّ في ذلك أنَّه سعيد بكفره راض به، لا تؤثِّر الآيات في تغيير مسار حياته أو تحويل وجهة قلبه، دعا ربَّه وألحَّ في الدُّعاء أن يكون قلبه في أكِنَّة وحجاب عن فهم القرآن ففتحت له أبواب السماء.

يظل العقل عاقلاً مدركًا لحقائق الأمور ما دام يسبح في الاتِّجاه الصَّحيح، له نقطة بداية ونهاية، يعلم حدوده وغايته، ولكنَّه عندما يغيب عن أرض الواقع ويحيد عن التَّفكير الصَّحيح المستقيم فلن تقبله جنَّة السَّماء العلوية، ولن تسعد به النُّفوس الذَّكية في جنَّتها الأرضيَّة، والحال كذلك عندما يستقبل الدُّنيا هذا القلب الذي أغلق ومنع من النَّظر والتَّأمُّل بحكمة في كلام الله تعالىٰ -القرآن الكريم-، وانساق وراء سراب لا يدرك بدايته من نهايته، فغطِّي بغطاء من الجهل، وغلِّف بغلاف السَّفه وسوء التَّقدير، فالهدف مع هذا الشَّكل ليس إدراك سر الحياة، والوقوف علىٰ مقاصدها وإنَّما الهدف طمس معالم الحق ورفع راية الباطل كحالة من يهذي هذيان السكران الذي لا يفيق ولا يريد أن يفيق بل يريد أن يظلَّ دائمًا في حالة الغياب الكامل عن الإدراك كما يصوِّر له خياله.

وهذا الشَّكل هو ما عبَّر عنه القرآن الكريم بـ (أكِنَّة القلوب)، «والكنان: الغطاء الذي يكن فيه الشيء. والجمع أكِنَّة، نحو غطاء وأغطية»[1].

فالأكِنَّة مرض من أمراض القلوب ذكره الله ﷻ مرتبطًا بقلوب المعرضين عن القرآن الكريم في أربعة مواضع لكل موضع منها هدف وغاية:

الموضع الأول: الاستماع بهدف تحقيق الباطل:

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: 25].

الحقُّ عند المُشرك بعيد المقصد عزيز الغاية، عليه هالات من الأتربة كادت أن تشبه الجبال، في حين تجد الباطل عنده رفيق الدَّرب أنيس الوحشة والوحدة واضحًا وضوح الشمس للعيان، تدفعه رغبة التَّشكيك وإلقاء الشبهات وتحقيق الباطل وشفاء مرض القلوب إلىٰ اختلاس لحظات من عمر الزَّمن ربَّما تكون هي أسعد اللحظات إلىٰ الاستماع لآيات الذِّكر الحكيم ومقصوده ليست الهداية وإنَّما الضَّلال والغواية، يحاول أن يقترب بأُذُنه من مصدر الصَّوت حتىٰ يوهم الآخرين أنَّه يستمع بغاية الفهم والإدراك ولكنَّ الحقيقة أنَّه لا يتدبَّر ولا يفهم حتىٰ يصل أثر ذلك إلىٰ القلوب فيتحوَّل هذا الاستماع إلىٰ ضربات قاسية موجعة تظهر أثرها في هذا الخطاب الذي يسم فيه القرآن الكريم بأنَّه أساطير الأولين، وقبل أن يدعوك هذا المشهد إلىٰ طرح السؤال والبحث عن الجواب انظر إلىٰ لفظة (الأكنَّة) وما تحويه وما ترمز إليه من دلالة الأغطية التي أمسكت بنبضات القلب أن تنبض بالصِّدق والهدىٰ وآثرت البقاء في عالم الضَّلالة، والتي خصَّهم الله بها لما علم من عدم استعدادهم للإيمان والهداية وتعطيل جميع الجوارح التي منحهم الله إياها.

(1) المفردات في غريب القرآن (ك. ن. ن) ص442. وينظر: لسان العرب 5/ 3943.

إذًا فهم يستمعون، «ولكنَّه استماع خال من قصد الحق واتِّباعه، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع لعدم إرادتهم للخير»[1].

فهؤلاء هم علية القوم، أدعياء أصحاب النهي -منهم- «من يستمع القرآن منك، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربِّك، وأمره ونهيه، ولا يفقه ما تقول إنَّما يسمع صوتك وقراءتك وكلامك، ولا يعقل عنك ما تقول، لأنَّ الله قد جعل على قلبه «أكِنَّة» »[2].

«وأسند جعل تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى لأنَّه خلقهم على هذه الخصلة الذَّميمة والتَّعقل المنحرف، فهم لهم عقول وإدراك لأنَّهم كسائر البشر، ولكن أهواءهم تخير لهم المنع من اتِّباع الحقِّ، فلذلك كانوا مخاطبين بالإيمان مع أن الله يعلم أنهم لا يؤمنون إذ كانوا على تلك الصفة، على أن خطاب التكليف عام لا تعيين فيه لأناس ولا استثناء فيه لأناس. فالجعل بمعنى الخلق وليس التَّحويل من حال إلى حال. وقد مات المسمون كلهم على الشرك عدا أبا سفيان فإنَّه شهد حينئذ بأنَّ ما سمعه حقٌّ، فدلَّت شهادته على سلامة قلبه من الكِنَان»[3].

الموضع الثاني: ستر الحقائق والانقياد للباطل:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: 46].

يعيد الكافر الكرَّة مرَّة أخرى فتجره قدماه إلى تتبع آثار الصوت تاركًا لأذنيه العنان حتى تستمع لآيات القرآن الكريم ولكن طبيعته الفاسدة تحول بينه وبين التدبُّر والتذكُّر، حيث أعلن التَّكذيب والإعراض فأطفأ الله نور الحقيقة في قلبه وألحقه بباب المعرضين.

فالإعداد الجيد أمارة من أمارات النَّجاح وضريبة الإعراض عن القرآن الفشل والضعف والخذلان، وأنت في هذا المشهد ترى كبراء القوم من المشركين مرَّة

(1) تيسير الكريم الرحمن ص253.

(2) جامع البيان 11/ 305.

(3) التحرير والتنوير 7/ 179، 180.

أخرىٰ يعيدون كرَّة الاستماع إلىٰ آيات القرآن الكريم وتتأثَّر بالاستماع إليه قلوبهم فتدعوهم إلىٰ الإيمان به والتَّصديق ولكنَّهم يحجبون عنها رؤية الحق فيقررون عدم الاستماع ويتعاهدون علىٰ ذلك فيما بينهم فتكون الأكِنَّة نتيجة حتميَّة ومنحة إلهية لتلك الطَّبيعة الفاسدة التي غيبت عنها معالم الحقِّ السَّاطعة وآيات الهداية الظَّاهرة فكشفت عن نواياهم ومقاصدهم الفاسدة فجعل الله ﷻ بينهم وبين فهم وتدبُّر آياته حجابًا مستورًا.

والتفسير يوضح هذه المعاني «﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي فيه الوعظ والتَّذكير، والهدىٰ والإيمان، والخير والعلم الكثير ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ يسترهم عن فهم حقيقته، وعن التَّحقيق بحقائقه، والانقياد لما يدعو إليه من الخير»[1].

وقد ظهر أثر ذلك في هذه القلوب «مما يتغشَّاها من خِذلان الله إياهم عن فهم ما يُتلىٰ عليهم»[2].

الموضع الثالث: الإعراض بعد التذكُّر سمة المستهزئين:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 57].

قد تصبح الحياة وتمسي في حياة بعض الناس بلا عنوان، لا يرتجىٰ منهم خير ولا ينتظر منهم فهم أو إدراك مادام الشَّيطان قد لعب بأفكارهم وداعب خيالاتهم، عرضت عليهم آيات الله ﷻ من أجل التذكُّر والتَّفكُّر بغية الهداية ولكنَّها صدَّت وأعرضت فحقَّق الظُّلم من خلالهم أقصىٰ أمانيه، فليس في عرف الزَّمن جريمة تعادل هذه الجريمة، ففي هذه الآية «يخبر تعالىٰ أنَّه لا أعظم جرمًا ولا أكبر جرمًا من عبد ذُكِّر بآيات الله وبين له الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال،

(1) تيسير الكريم الرحمن ص459.

(2) جامع البيان 17/ 458.

وخوف ورهب ورغب، فأعرض عنها فلم يتذكَّر بما ذكِّر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يداه من الذُّنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلمًا من المعرض الذي لم تأته آيات الله، ولم يذكَّر بها، وإن كان ظالمًا، فإنَّه أخف ظلمًا من هذا، لكون العاصي علىٰ بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك ولكن الله عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه حالة الشَّرِّ مع علمه بها أن سدَّ عليه أبواب الهداية»[1].

فالعدل أن تنزع من هؤلاء تلك القلوب التي تفقه وتعقل وتمنح قلوبًا عليها أكِنَّة وآذانًا بها صَمَم فلا تفقه ولا تسمع الحقَّ ولا تستجيب له، «فهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجىٰ منهم أن يفقهوا هذا القرآن، ولا أن ينتفعوا به. لذلك جعل الله علىٰ قلوبهم أغطية تحول دون فقهه، وجعل في آذانهم كالصمم فلا يستمعون إليه، وقدَّر عليهم الضَّلال -بسبب استهزائهم وإعراضهم- فلن يهتدوا إذًا أبدًا. فللهدىٰ قلوب متفتِّحة مستعدَّة للتلقِّي»[2].

الموضع الرابع: الرِّضا بالكفر:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: 5].

من الخطأ أن أظنَّ أنِّي لا أخطئ حتىٰ يمكن أن أتنسم عبير الإيمان وتبرأ نفسي من جميع العلل والأسقام ولكن أن أعلن الكفر صراحة وأرضىٰ به دينًا وكأنَّما قد عادت به إلي الحياة فأعرض عن القرآن الكريم صراحة فلا أسمع حتىٰ إذا سمعت فلا أفقه ولا أتدبَّر فتلك هي الكارثة التي حلت بديار قوم كافرين؛ وذلك لأنَّ الكفار «صرحوا للنبي ﷺ، بأنَّهم لا يستجيبون له ولا يؤمنون به، ولا يقبلون منه ما جاءهم به فقالوا له قلوبنا التي نعقل بها، ونفهم في أكنة، أي

(1) تيسير الكريم الرحمن ص480. وينظر: تفسير القرآن العظيم 5/ 72.

(2) في ظلال القرآن 4/ 2276.

أغطية. والأكنة جمع كنان، وهو الغطاء والغلاف الذي يغطي الشيء ويمنعه من الوصول إليه. ويعنون أن تلك الأغطية، مانعة لهم من فهم ما يدعوهم إليه ﷺ»[1].

وعلىٰ ذلك فهم في هذه الحالة «قد أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرِّضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإنَّا راضون كل الرِّضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضَّلال عن الهدىٰ، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا»[2].

فهم بذلك قد أغلقوا جميع منافذ الدعوة حتىٰ يتمكَّن الكفر من قلوبهم وحتىٰ لا يعاود الرسول ﷺ محاولة إصلاح هذا الفساد، وقد «قالوا هذا إمعانًا في العناد، للرسول ﷺ ليكف عن دعوتهم، لما كانوا يجدونه في قلوبهم من وقع كلماته، علىٰ حين يريدون عامدين ألا يكونوا مؤمنين! قالوا: قلوبنا في أغطية فلا تصل إليها كلماتك، وفي آذاننا صمم فلا تسمع دعوتك، ومن بيننا وبينك حجاب، فلا اتصال بيننا وبينك، فدعنا واعمل لنفسك فإنَّنا عاملون لأنفسنا، أو أنَّهم قالوا غير مبالين: نحن لا نبالي قولك وفعلك، وإنذارك ووعيدك، فإذا شئت فامض في طريقك فإنَّا ماضون في طريقنا، لا نسمع لك وافعل ما أنت فاعل، وهات وعيدك الذي تهدِّدنا به غير مبالين»[3].

فهذه آيات أربع ترىٰ الأكِنَّة قد سيطرت علىٰ القلوب حتىٰ تمكَّنت منها فتجد الفاعل الله في الآيات الثلاثة الأولىٰ، والآية الرابعة تراها من فعل أنفسهم فكيف يمكن الجمع بينهما؟.

---

(1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد الأمين الشنقيطي 7/ 108 - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - 1425هـ-1995م.

(2) تيسير الكريم الرحمن ص744.

(3) في ظلال القرآن 5/ 3108.

«وهذا الإشكال الذي أشرنا إليه في هذه الآيات قوي، ووجه كونه مشكلاً ظاهرًا لأنَّه تعالىٰ ذمَّهُم علىٰ دعواهم الأكِنَّة والوقر والحجاب في هذه الآية الكريمة من فصلت، وبيَّن في الآيات الأخرىٰ أنَّ ما ذمَّهم علىٰ ادِّعائه واقع منهم فعلاً، وأنَّه تعالىٰ هو الذي جعله فيهم. فيقال: فكيف يذمُّون علىٰ قول شيء، وهو حقٌّ في نفس الأمر. والتَّحقيق في الجواب عن هذا الإشكال، هو ما ذكرناه مرارًا، من أنَّ الله إنَّما جعل علىٰ قلوبهم أكنَّة، وطبع عليها وختم عليها، وجعل الوقر في آذانهم، ونحو ذلك من الموانع من الهدىٰ، بسبب أنَّهم بادروا إلىٰ الكفر، وتكذيب الرُّسل طائعين مختارين، فجازاهم الله علىٰ ذلك الذَّنب الأعظم، طمس البصيرة والعمىٰ عن الهدىٰ، جزاء وفاقًا. فالأكِنَّة والوقر والحجاب المذكورة إنَّما جعلها الله عليهم، مجازاة لكفرهم الأول. ومن جزاء السَّيئة، تمادي صاحبها في الضَّلال، ولله الحكمة البالغة في ذلك. والآيات المصرحة بمعنىٰ هذا كثيرة في القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: 155]. فقول اليهود في هذه الآية ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ كقول كفَّار مكَّة: ﴿قُلُوبُنَا﴾ ﴿فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ لأنَّ الغلف، جمع أغلف وهو الذي عليه غلاف، والأكنَّة جمع كنان، والغلاف والكنان كلاهما بمعنىٰ الغطاء السَّاتر ...»[1].

إذًا فمن الممكن أن يغيب عنك الحقُّ فلا تستطيع إدراكه فترة من الزَّمن ولكن تظل في حالة بحث دائب حتىٰ تصل إليه، وعندما تصل إليه لا يمكن أن تفرط فيه أو أن تتنازل عنه ولو كيلت لك الدنيا بميزان الذَّهب والفضَّة، فأنت في هذه الحالة تقف علىٰ أرض صلبة، تمتد يداك يمينًا أو يسارًا فتجد الحقَّ طوع بنانك ولكن أن تصرخ بأعلىٰ صوتك وتجهر بكلمة الكفر وتصرح بها فتعلن أمام الملأ بأنَّ بينك وبين القرآن الكريم حجابًا مستورًا لا يمكن أن يلين له قلبك في يوم من الأيام لأنَّه قد غلِّف بطبقات بعضها فوق بعض من الكِبْر والتَّعالىٰ والفخر، فهي في الحقيقة ليست أغطية أو طبقات بل هي بتعبير القرآن الكريم ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا

(1) أضواء البيان 7/ 109، 110.

فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: 40]، فعندما أعلن المشركون ذلك وصرَّحوا به وكتبوا شهادة وفاتهم بأيديهم حكم الله ﷻ عليهم من فوق سبع سماوات وفي مواضع ثلاثة من قرآنه الكريم بحكمه الذي يتوافق مع طباعهم الخبيثة ونفوسهم اللئيمة التي أبت أن تؤمن أو علىٰ الأقل تسمع فتحكم، حتىٰ عندما سمعت فلم يكن الهدف منه الهداية وطلب الإيمان وإنَّما الضَّلالة والكفر فكتب الله عليهم الصَّدَّ والإعراض وعدم الفقه والعلم.

إذًا فدلالة (الأكِنَّة) في جميع المواضع تعني في السياق القرآني «أغطية وأغشية، لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعونه سماعًا تقوم به عليهم الحُجَّة ... وإن سمعتها فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلىٰ القلب»[1].

فـ«الكنان: الغطاء؛ لأنَّه يكنُّ الشيء، أي يستره. وهي هنا تخييل لأنَّه شبهت قلوبهم في عدم خلوص الحقِّ إليها بأشياء محجوبة عن شيء. وأثبتت لها الأكِنَّة تخييلاً، وليس في قلب أحدهم شيء يشبه الكِنَان»[2].

إذًا فالهدف واحد وإن اختلفت أشكاله وتعدَّدت ألوانه، فما دام الكافر قد رضي بكفره واطمأنَّ به قلبه فلا غاية له إلا نشر الباطل ولا مجال عنده للفهم والتَّدبُّر؛ وذلك لأنَّ من سمته الإعراض بعد التذكُّر، لذلك فعلىٰ قلبه غطاء لا يستطيع معه أن يعقل أو يفهم وهي دلالة مجازية عن طريق الاستعارة، فكان التَّعبير بالأكِنَّة هو المناسب لهذه الحالة.

(1) تيسير الكريم الرحمن 459، 480.

(2) التحرير والتنوير 7/ 179.

الشكل التاسع: مرض القلوب

يطير الحق بألف جناح يراه الصالحون من عباد الله فيقتنعون به فيعتنقوه، فالحقُّ له جلاله وقدره وعظمته ويكفيه أنَّه الحقُّ، فقد تكون يد الحقِّ ضعيفة في بعض الأحيان وإن امتلكت أسباب القوة بأساليب الحُجَّة والبرهان فتراه مهيض الجناح تقتنع به ولكن لا تستطيع أن تعتنقه فيتوارىٰ وراء الحجب، ولكن عندما يعود، يعود وبقوَّة، حتىٰ إذا ما دخل القلوب لا يمكن أن يخرج منها أبدًا حتىٰ وإن تكالبت عليه جميع قوىٰ الأرض -فالحقُّ أحقُّ أن يتبع-، وكم من شبهات أثيرت وفتن سيطرت علىٰ كثير من القلوب ولكن يظل للحق اليد الطولىٰ التي لا يمكن أن تقاوم.

وفي مواضع ثلاثة ترىٰ القرآن الكريم وجهًا لوجه أمام المنافقين يفضح سرائر وحقد قلوبهم:

الحالة الأولىٰ: الأوامر والنواهي:

في هذه الحالة عندما تنزل السُّورة من القرآن الكريم وفي أهم حالة اختبار في حياة بني البشر ترىٰ قلوب المؤمنين في حالة استسلام كامل ملئ بالبِّشر والسَّعادة والسُّرور يزداد إيمانها ويقينها بالله ﷻ بخلاف قلوب المنافقين التي أصابها المرض فتزداد كفرًا وضلالاً وشكًّا وإثمًا، حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 124، 125].

ومرض القلوب قد توجه دلالته إلىٰ إحدىٰ الدَّلالات الأربع السابقة، حيث قيل: «﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ شك ونفاق ﴿فَزَادَتۡهُمۡ﴾ كفرًا إلىٰ كفرهم وضلالاً إلىٰ ضلالهم وشكًّا إلىٰ شكهم، وقال مقاتل: (إثمًا إلىٰ إثمهم)»[1].

(1) الكشف والبيان 5/ 113. وينظر: تفسير القرآن العظيم 4/ 239.

وقد حدث لهم هذا المرض «من حيث إنَّهم كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها. فازداد لذلك مرضهم وترامىٰ بهم إلىٰ الهلاك والطَّبع علىٰ قلوبهم، حتىٰ (ماتوا وهم كافرون) وهذا عقوبة لهم؛ لأنَّهم كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلىٰ يوم يلقونه»[1].

وهذا المرض في هذه الصُّورة قد خرج من معناه الحقيقي إلىٰ معناه المجازي المعنوي، حيث ظهر في صورة الشَّك والنِّفاق: «ومنه يقال: فلان يمرض في الوعد: إذا لم يصحِّحه، وأصل المرض: الضَّعف والفتور. فسمي الشَّكُّ في الدِّين والنِّفاق (مرض به) يضعف البدن وينقص قواه؛ ولأنَّه يؤدِّي إلىٰ الهلاك بالعذاب، كما أن المرض في البدن يؤدِّي إلىٰ الهلاك والموت»[2].

ولذلك قيل: «المرض: الخروج عن حد الاعتدال الخاصِّ بالإنسانيَّة، وذلك ضربان:

الأول: مرض جسمي، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: 17].

وفي قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: 91].

والثَّاني عبارة عن الرَّذائل، كالجهل، والجبن والبخل والنِّفاق وغيرهما من الرَّذائل الخُلُقيَّة.

نحو قوله تعالىٰ: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10].

وقوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ [النور: 50].

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: 125].

وذلك نحو قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: 64].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن 356.

(2) الكشف والبيان 1/ 154.

وشبه النِّفاق والكفر ونحوهما من الرَّذائل بالمرض -إما لكونها مانعة عن إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن عن التَّصرف الكامل، وإما لكونها مانعة عن تحصيل الحياة الأخروية المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64]. وإما لميل النَّفس بها إلىٰ الاعتقادات الرَّديئة ميل البدن المريض إلىٰ الأشياء المضرَّة»[1].

الحالة الثانية: مشروعية الجهاد:

تأتي آية أخرىٰ وفي موقف آخر تكشف كذب هؤلاء المنافقين وادِّعائهم الإيمان؛ وذلك عندما يروا أنفسهم في مواجهة مباشرة أمام مشروعية الجهاد والتي تمنوها منذ زمن بعيد ولهجت ألسنتهم بذلك كثيرًا -كما زعموا- فترىٰ مرض قلوبهم مجسدًا في نظراتهم نظر المغشي عليه من الموت، «أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء»[2].

ولذلك يقول الله تعالىٰ معبرًا عن هذه الحال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: 20].

فقد تشتاق إلىٰ الشيء ولكن عندما تواجه به تعرض عنه، وهذا هو الحال هنا «﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استيثاقًا منهم إلىٰ الوحي وحرصًا علىٰ الجهاد ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ تأمرنا بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ بالأمر والنَّهي، قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد، فهي محكمة، وهي أشدُّ القرآن علىٰ المنافقين ...﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ يعني المنافقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ شزرًا، بتحديق شديد كراهة منهم للجهاد، وجبنًا منهم علىٰ لقاء العدو ﴿نَظَرَ﴾ كنظر ﴿ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ وعيد وتهديد»[3].

(1) المفردات في غريب القرآن (م. ر. ض) ص466.

(2) تفسير القرآن العظيم 7/ 317.

(3) الكشف والبيان 9/ 35.

وهذه الآية تشبه آيات أخرىٰ منها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77].

الحالة الثالثة: تلبيس إبليس:

إن كشف حقيقة المنافقين لا يحتاج إلىٰ دليل واحد بل إلىٰ عدَّة أدلة، وهذا دليل ثالث تثبت به الإدانة وتقوم به عليهم الحجَّة، فالرَّسول ﷺ يتلو آيات من القرآن الكريم أمام جمع من النَّاس فيدخل الشَّيطان في قراءته ما ليس منها فيميل إلىٰ تصديقها المنافقون الذين في قلوبهم مرض، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: 52، 53].

فلم ينتبه المنافقون لهذا الاختبار الصَّعب وإنما نتاج قلوبهم ترجمته شائعات الكذب والبهتان التي أذاعوها بلسانهم، وهذا إن دلَّ علىٰ شيء فإنَّما يدلُّ علىٰ هذا المرض الذي أصاب قلوبهم، والذي يعني: «ضعف وعدم إيمان وتصديق حازم، فيؤثِّر في قلوبهم أدنىٰ شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشَّيطان، داخلهم الرَّيب والشَّك فصار فتنة لهم ...»[1].

وهنا تشابهت قلوب المنافقين التي أصابها المرض مع قلوب الكافرين القاسية قلوبهم، فالذين في قلوبهم مرض: «أي: شكٌّ وشركٌ وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنَّه صحيح، وإنَّما كان من الشَّيطان. قال ابن جريج: ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم: المنافقون ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون. وقال

(1) تيسير الكريم الرحمن ص542.

مقاتل بن حيَّان: هم الكافرون واليهود ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في ضلال ومخالفة وعناد بعيد أي: من الحَقِّ والصَّواب»[1].

وبهذا يتبيَّن لك كذب هؤلاء المدَّعين وزور باطنهم وظاهرهم، كلما فتحت بابًا من أبواب الخير أوصدوه، وكلما زيَّن لهم الشَّيطان السُّوء صدَّقوه وآمنوا به واتَّبعوه، يلبسون لباس التقوىٰ والإيمان، يتشبَّهون في طاعة الظَّاهر بملائكة الرَّحمن ولكن الآيات خير شاهد ودليل علىٰ هذا المرض الخبيث الذي أصاب قلوبهم والذي لا يرجىٰ معه الشِّفاء وليس له دواء.

فالمرض في هذه الصُّورة خاص بتلك القلوب التي استمعت لآيات القرآن الكريم حال نزولها فازداد ضلالها وإثمها، وكذلك حال فرضية الجهاد وتلبيس إبليس وإدخاله في قراءة النبي ﷺ ما ليس منها، فهم في حال الاختبار لا وجود لهم، تسمع كلماتهم وعباراتهم فتظن فيهم الصَّلاح ولكن في أرض الواقع ترىٰ أشباه الرجال الذين سيطر المرض علىٰ قلوبهم التي لم تستجب لدواء والتي عجز عن علاجها الأطباء.

(1) تفسير القرآن العظيم 5/ 445. وينظر: لباب التأويل 5/ 24.

obeikandl.com

الخاتمة

أصيبت بعض قلوب بني البشر بداء الإعراض عن القرآن الكريم فتراها تسمع وكأنَّها لا تسمع، وإذا سمعت فلم يكن مقصدها الوصول إلىٰ الحقِّ وإنَّما الجدال بالباطل مع علمها واقتناعها بأنَّها علىٰ الباطل، وبعد رحلة استغرقت عدة شهور مع هذه القلوب في القرآن الكريم؛ وذلك بالوصف والشَّرح والتَّحليل والتَّصنيف والتَّوصيف، ومن خلال عنوان: (قلوب المعرضين عن القرآن في القرآن دلالات وحكم وأسرار) يمكن أن يخرج الباحث بعدة نتائج منها:

أولاً- بالحصر والإحصاء تبيَّن أن قلوب المعرضين عن القرآن في القرآن تسعة أنواع سيطر الكُفَّار واليهود والمنافقون عليها، وإن كان للمنافقين النَّصيب الأكبر.

ثانيًا- ترىٰ ران القلوب يُقَدِّم صورة حيَّة للكافر الذي وصف القرآن بأنَّه أساطير الأولين، حيث احتجبت عنه دلائل النقل والعقل فغطَّت الذُّنوب والمعاصي عليها فلم تبصر حقيقة الآيات البيِّنات.

ثالثًا- عندما ترىٰ انحرافًا عن الفطرة وضلالاً عن اتِّباع الصِّراط المستقيم وميلاً عن طريق الهداية والرَّشاد وتتبعًا للمتشابه من الآيات فهؤلاء هم الذين في قلوبهم زيغ.

رابعًا- الأصل أن تكون علىٰ الحقِّ وأن تفقه ما جاء عن الله ورسوله ولكن التَّحول عنه نتيجة حتميَّة لمن صرف قلبه عن اتِّباع الهدىٰ وصمَّم علىٰ الكفر بعد إذ هداه الله للإيمان.

خامسًا- عندما تتهم الحقَّ بالباطل والهدىٰ بالضَّلال وتستحسن المعاصي وتصبح لك طبع وسجيَّة فالطَّبع علىٰ القلوب أثر من آثار هذا الخلق الذَّميم.

سادسًا- تحكم علىٰ بصيرتك بالجهل والظُّلم والغفلة فتنأىٰ عن التفكُّر في آيات الله فأنت بذلك قد أزلت أثر الحقِّ الذي خلقت عليه واستمسكت بجميع

صور الباطل وعملت بعمل أهل الكفر المناقضة لعمل أهل الإيمان فأنت الآن في غمرة من غمرات القلوب.

سابعًا- قسوة القلوب مستعارة لعدم التأثُّر بما في القرآن الكريم من مواعظ وآيات فهي لا تلين ولا تتذكَّر وإنما تعرض وتُنْكر، وأقفال القلوب استعارة للرَّيب الذي منعهم من الإيمان.

ثامنًا- دعوة من القرآن الكريم للتفكُّر والتدبُّر ولكن جعلت بينك وبين ذلك حجابًا ومانعًا فأغلقت جانب الخير والحقِّ فأصبحت القلوب غير مهيئة للإيمان في هذا الباب المعروف بأقفال القلوب.

تاسعًا- عظيم أن تستمع لآيات القرآن الكريم ولكن عندما يكون الهدف تحقيق الباطل وعدم الفهم والتدبُّر والإعراض بعد التذكُّر ثم الرِّضا بالكفر صراحة فأبشر بأكِنَّة القلوب التي تعني الغطاء الذي لا يغني معه فهم ولا تدبُّر.

عاشرًا- عندما تصاب بعض القلوب بالضَّعف والمرض فتستمع لنداءات الشَّيطان وتعرض عن الجهاد في سبيل الله ﷻ فالكفر والضَّلال والشَّك علامة من علاماتها.

إحدىٰ عشر- قد يكون المخاطب واحدًا ولكن اختلاف المقام في كل صورة والتَّصنيف والتَّوصيف الخاص به من حيث المغزىٰ والهدف يجعل لكل لفظة عالمها الخاص الذي تنفرد به وبيتها الذي تأوي إليه.

ثاني عشر- كل داء من هذه الدَّاءات التي سيطرت علىٰ هذه القلوب يأتي نتيجة حتميَّة لما اتَّصفت به.

ثالث عشر- بعض أصناف هذه القلوب خاص بدائرة المنافقين كما في صرف القلوب وبعضها عام كما في زيغ القلوب.

رابع عشر- الأسباب مقدمات للنتائج وذلك كما في انصرفوا صرف الله قلوبهم.

خامس عشر- يبدو التَّقارب الدَّلالي واضحًا بين جميع أنواع هذه القلوب ولكن مع الفروق الدَّقيقة الخاصَّة بكل سياق.

سادس عشر- يبدو عند بعض علماء التفسير أن بعض هذه الأنواع ليس بينها فروق دلالية بدليل التَّعبير عن الطبع بالختم والعكس كذلك والرَّان بالطبع والختم والإقفال بالرَّين.

سابع عشر- بالبحث والتحليل تبيَّن أنَّ كل داء من هذه الدَّاءات يمثل مرحلة من المراحل فالختم مرحلة أعلىٰ من الرَّان والرَّان أيسر من الطبع والطبع أيسر من الإقفال والإقفال أشد من ذلك كله

ثامن عشر- أنواع هذه القلوب قد ترد في سور مكية تبرز حقيقة قلوب الكافرين فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وقد ترد في سور مدنية تفضح من خلالها قلوب المنافقين، وقد تكون السُّورة مدنيَّة إلا الآيات التي وردت فيها هذه القلوب فنزلت بين مكَّة والمدينة كما في مرض القلوب في سورة الحج.

تاسع عشر- تارة يعبر عن الإعراض عن القرآن صراحة وتارة يعبر عن طريق الاستعارة مثل ذكر الله.

عشرون- أشكال هذه القلوب كلها معنويَّة وليست حسيَّة وإن كان بعض علماء التفسير يرىٰ أنَّها حقيقية.

وبعد، فالبيان هدف من أهداف التَّوجيه والنُّصح والإرشاد فإذا رأيت القلب في بعض اللحظات منصرفًا عن آيات الله فتذكَّر أنَّ هذا قد يكون بداية من بدايات الإعراض وسببًا من أسباب الانصراف عن الفقه والتَّدبُّر فعُد سريعًا قبل أن يصبح ذلك طبعًا وسجيَّة وتعلَّم الدَّرس من الآخرين فأنت الآن بين عدَّة طرق أنت فيها صاحب الاختيار تخيَّر منها ما يتناسب مع فطرتك قبل أن يكون ذهاب بلا عودة وسفر بلا رفيق.

obeikandl.com

obeikandl.com

فهرس المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم.**

1- إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي. تحقيق. سيد بن إبراهيم ابن صادق بن عمران - دار الحديث - القاهرة - 1419هـ-1998م.

2- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد بن الأمين الشنقيطي - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - 1425هـ-1995م.

3- بحر العلوم. نصر بن محمد السمرقندي. تحقيق د. محمود مطرحي - دار الفكر - بيروت.

4- البحر المحيط. أبوحيان الأندلسي. تحقيق. عادل أحمد عبد الموجود وآخرين - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1422هـ-2001م.

5- البحر المديد. أحمد بن محمد بن عجيبة - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية 1423هـ-2002م.

6- التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس 1997م.

7- التسهيل لعلوم التنزيل. محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي - دار الكتاب العربي - لبنان - الطبعة الرابعة 1403هـ-1983م.

8- تفسير البيضاوي - دار الفكر - بيروت.

9- تفسير السراج المنير. محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت.

10- تفسير العز بن عبد السلام. تحقيق د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبي - دار ابن حزم - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1416هـ-1996م.

11- تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. حققه. سامي بن محمد سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية 1420هـ-1999م.

12- تفسير القرآن. منصور بن محمد السمعاني. تحقيق. ياسر ابن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم - دار الوطن - الرياض - السعودية - 1418هـ-1997م.

13- تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق. أحمد فريد - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1424هـ-2003م.

14- تفسير النسفي. أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. تحقيق. مروان محمد الشعار - دار النفائس - بيروت - 2005م.

15- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. المحقق. عبد الرحمن بن معلا اللويحق - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

16- جامع البيان في تأويل آي القرآن. محمد بن جرير الطبري. حققه. أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

17- الجامع الصحيح المختصر. محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق د. مصطفىٰ ديب البغا - دار ابن كثير - اليمامة - بيروت - الطبعة الثالثة 1407هـ-1987م.

18- الجامع لأحكام القرآن. محمد بن أحمد القرطبي. تحقيق. هشام سمير البخاري - دار عالم الكتب - الرياض - المملكة العربية السعودية 1423هـ-2003م.

19- الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي). أحمد بن محمد الثعالبي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

20- فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي الشوكاني - دار الفكر - بيروت.

21- في ظلال القرآن. سيد قطب - دار الشروق - الطبعة الشرعية السادسة عشرة - 1410هـ-1990م.

22- الكشف والبيان. أحمد بن محمد الثعلبي. حققه. أبو محمد بن عاشور - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1422هـ-2002م.

obeikandl.com

23- لب التأويل في معاني التنزيل. علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن - دار الفكر - بيروت - لبنان - 1399هـ-1979م.

24- لسان العرب. ابن منظور الإفريقي. تحقيق. عبد الله علي الكبير وآخرين - دار المعارف.

25- مجاز القرآن. أبو عبيدة معمر بن معمر المثنى.. علق عليه د. محمد فؤاد سزكين - مكتبة الخانجي بالقاهرة.

26- المحرر الوجيز. ابن عطية الأندلسي. تحقيق. عبد السلام عبد الشافي محمد - دار الكتب العلمية - لبنان - الطبعة الأولى 1413هـ-1993م.

27- معالم التنزيل. الحسن بن مسعود البغوي. حققه. محمد عبد الله النمر وآخرون - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الرابعة 1417هـ-1997م.

28- معاني القرآن للنحاس. تحقيق. محمد علي الصابوني - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - الطبعة الأولى 1409هـ.

29- مفاتيح الغيب. فخر الدين الرازي - دار الكتب العلمية - بيروت - 1421هـ-2000م.

30- المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني. تحقيق. محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - لبنان.

31- مقاييس اللغة. ابن فارس. حققه. عبد السلام محمد هارون - دار الفكر - 1399هـ-1979م.

32- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. إبراهيم بن عمر البقاعي. تحقيق. عبد الرزاق غالب المهدي - دار الكتب العلمية - بيروت - 1415هـ-1995م.

33- النهاية في غريب الحديث والأثر. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. تحقيق. طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي - المكتبة العلمية - بيروت - 1399هـ-1979م.

obeikandl.com

فهرس الموضوعات

المقدمة **53**
التمهيد: قلوب المعرضين في الميزان 57
الشكل الأول: ران القلوب 60
الشكل الثاني: زيغ القلوب 66
الشكل الثالث: صرف القلوب 69
الشكل الرابع: طبع القلوب 73
الشكل الخامس: غمرة القلوب 79
الشكل السادس: قسوة القلوب 83
الشكل السابع: أقفال القلوب 88
الشكل الثامن: أكنة القلوب 93
الشكل التاسع: مرض القلوب 101
الخاتمة **107**
فهرس المصادر والمراجع **111**

obeikandi.com